



د. علي الصلابي

العلاقات التركية الليبية منذ 1510م وحتى الوقت الحاضر

أهم المحطات والمراحل التي مرت بها العلاقة بين تركيا
وليبيا منذ دخول العثمانيين الى ليبيا وحتى الوقت الحاضر

مركز إدراك للدراسات والاستشارات
IDRAK CENTER FOR STUDIES & CONSULTATIONS

إدراك IDRAK

العلاقات التركية الليبية منذ 1510م وحتى الوقت الحاضر

د. علي محمد الصلابي¹

مارس/ آذار 2020

¹ مؤرخ ليبي من مواليد مدينة بنغازي الليبية عام 1963. تحصل على درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية من جامعة أم درمان الإسلامية، وحاز درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بمؤلفه فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999م. له عشرات المؤلفات في التاريخ والفكر الإسلامي، ومنها كتابه الوسطية في القرآن والسيرة النبوية والدولة الحديثة المسلمة والحريات في الإسلام والدولة العثمانية والجمهورية الطرابلسية وغيرها من المؤلفات.

فهرس

3	مقدمة
4	أولاً: البدايات الأولى: فترة الجهاد العثماني البحري ضد الصليبيين في السواحل الليبية
5	ثانياً: مرحلة التماس المباشر: وفد ليبي يطلب النجدة السلطانية العثمانية
7	ثالثاً: حملة سنان باشا وتحرير طرابلس من أيدي فرسان مالطا (الصليبيين)
9	رابعاً: أوضاع ولاية ليبيا في مرحلة حكم ولاة الدولة العثمانية
10	خامساً: الدور الجهادي للولاة العثمانيين في الدفاع عن ليبيا
12	سادساً: ليبيا في ظل حكم الأسرة القرمانلية
13	سابعاً: ليبيا في مرحلة الحكم العثماني المباشر (إعادة الاستقرار إلى ربوع ليبيا)
15	ثامناً: إنجازات الإصلاح والتحديث العثماني في ليبيا
18	تاسعاً: الدور التركي العثماني في التصدي للغزو الإيطالي لليبيا وتأخير
18	تدابير السلطان عبد الحميد الثاني أمام الأطماع الاستعمارية الإيطالية في ليبيا
19	دور القادة الأتراك في جهاد الغزو الإيطالي في ليبيا (بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني)
20	دور القائد التركي أنور باشا في الجهاد الليبي
22	الضابط التركي أمين بك في الجهاد الليبي
23	دور السيد أحمد الشريف السنوسي في تركيا
26	عرض مصطفى كمال على أحمد الشريف نيابة الخليفة وجهاده مع الأتراك:
30	عاشراً: العلاقات الليبية التركية بعد الاستقلال الوطني الليبي
30	العلاقات التركية الليبية في عهد ملك ليبيا محمد إدريس السنوسي
32	العلاقات التركية الليبية في عهد القذافي
35	الحادي عشر: تطور العلاقات التركية الليبية بعد ثورة فبراير (2011 - 2019م)
35	المرحلة الأولى: الموقف التركي في بداية الثورة الليبية
36	المرحلة الثانية: الموقف التركي وانسجابه مع جهود الشرعية الأممية في ليبيا
37	المرحلة الثالثة: الموقف التركي الداعم لحكومة الوفاق الوطني في ليبيا
39	خاتمة ونتائج
40	المصادر والمراجع

مقدمة

اقتضت الحكمة الإلهية أن يحدث تزاخم في الأفكار وتضارب في المصالح وتنافس في مجالات الحياة وتداول للدول وتعاقب للأحداث الإنسانية، وهذا التقدير الإلهي عاشته البلاد الليبية في علاقاتها التاريخية بالأمم والشعوب الأخرى، ولعل أطول علاقة شهدتها هي علاقتها المتواصلة بالترك - قديماً وحديثاً - على أساس من مدافعة الباطل وحفظ الحق وحماية أهله.

لقد دخلت البلاد الليبية بعد مرحلة الفتح الإسلامي في عام 643م في حكم دولة الخلافة الراشدة، ثم تبعت للدولة الأموية ثم التحقت بالدولة العباسية. وبشكل عام، فقد تعاقبت على حكم ليبيا عدة دول إسلامية بعضها تأسس في شمال إفريقيا واستقل عن حكم المشرق ومركز الخلافة، فأصبح المجال الليبي ميداناً للصراع بين الأسر المحلية ومختلف العناصر القبلية التي تسعى للنفوذ على الأرض من جهة، وتبعت في غربها للفاطميين ثم لدولة صنهاجة ثم لدولة الموحدين ثم الحفصيين، بينما بقيت برقة تحت سيادة الدول التي حكمت مصر حتى مجيء العثمانيين من جهة أخرى².

وفي عام 1510م، هاجم الأسطول الإسباني مدينة طرابلس واحتلها على الرغم من المقاومة الشديدة التي أبدتها الأهالي، وبالرغم من سقوطها إلا أن حركة المقاومة الشعبية استمرت، وقد ضرب المقاومون حصاراً حول طرابلس، مما اضطر الإسبان فيما بعد لتسليمها إلى فرسان القديس يوحنا الصليبيين (فرسان مالطا) عام 1530م. وقد استنجد الأهالي المقاومون بالسلطنة العثمانية لإنقاذ بلادهم وتحريرها³، ومن تلك اللحظة دخلت ليبيا طوراً جديداً في تاريخها، حين بدأت العلاقة المباشرة بين الأتراك والليبيين، والتي سنتحدث عنها عبر مراحل تاريخية من بداية استنجد أهالي ليبيا بالدولة العثمانية وحتى وقتنا الحاضر.

²فرانشكو كورو، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، طرابلس، ترجمة: خليفة محمد التليسي، ط2، 1984، ص 12.

³محمود السيد، تاريخ دول المغرب العربي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000، ص. ص 50-51.

أولاً: البدايات الأولى: فترة الجهاد العثماني البحري ضد الصليبيين في السواحل الليبية

شكل الجهاد العثماني البحري نقلة نوعية في تاريخ التصدي الإسلامي للغزو الصليبي على الشواطئ الإسلامية، وكان المجاهدون العثمانيون قد بدأوا عملياتهم لتحرير سواحل إفريقيا الشمالية، وهم من هيا الظروف لحماية البقاع الممتدة من الجزائر إلى مصر مروراً في طرابلس الغرب (ليبيا) وإلحاقها بالسلطنة العثمانية. وبعد ذلك، علت أصوات النجدة الشعبية (استنجد السكان المحليين في الجزائر وتونس وليبيا والمغرب) بجنود الدولة العلية العثمانية في عهد السلطانين سليم الأول وسليمان القانوني، فكانت بداية علاقة طويلة بين السواحل الإسلامية الأفريقية والمجاهدين الأتراك الذين تميزوا بالجرأة والإقدام وخوض الصعاب للدفاع عن المسلمين في تلك المناطق، ومن الحوادث التي يمكن ذكرها أنه في عام 1512م ظهرت أولى السفن التركية التي أخذت تهدد الإسبان في طرابلس وتهاجمها بحراً مما سبب ضغوطاً أمنية وعسكرية على المحتلين الإسبان الذين لم يمض على احتلالهم لطرابلس سوى عامين، في وقت كان العرب الليبيون يقاومونهم من دواخل البلاد بشكل مستمر⁴.

كما هدد بطل الجهاد البحري خير الدين باربروسا الإسبان في طرابلس عام 1515م، وذلك بعد توليه حكم الجزائر إثر استشهاد أخيه عروج، وذلك بعدما وضع نفسه في طاعة السلطان العثماني سليم الأول، وحصل على مساعدات بحرية ومتطوعين من الشرق لجهاد الإسبان وغيرهم في البحر المتوسط وشمال أفريقيا.

هكذا كان للنشاط الكبير الذي أبداه البحارة الأتراك دوره في تعقيد الوضع بالنسبة للإسبان في شمال إفريقيا، حيث كانت ليبيا نفسها تعاني من أوضاع سيئة، ففي عام 1526م كان الشيخ الذي وثق فيه الإسبان قد انضم إلى الثوار في تاجوراء، بينما كان الخوف من هجوم للأسطول التركي مخيماً على الإسبان⁵.

وقد ساهم الأتراك العثمانيون في تقويض النفوذ الصليبي في مرحلة مبكرة في شمال أفريقيا الإسلامية، فحاضوا عدة معارك ألقوا الرعب من خلالها في قلوب الإسبان ودمروا أسطولهم في أكثر من موقعة كان أكثرها بقيادة المجاهد خير الدين باربروسا⁶.

⁴عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة: عبد السلام أدهم، ط1، 1969، ص186.

⁵عزيز سامح، المرجع السابق، ص. ص188-189.

⁶محمود السيد، المرجع السابق، ص53.

ثانياً: مرحلة التماس المباشر

وفد لبيي يطلب النجدة السلطانية العثمانية

ذكرت المصادر التاريخية أنه وبعد احتلال الإسبان لطرابلس الغرب، قام وفد من مدينة تاجوراء بالسفر إلى إستانبول عبر البحر طالباً النجدة من السلطان العثماني سليم الأول ومساعدته ضد الغزاة الصليبيين، وعندما وصل الوفد إلى عاصمة العثمانيين سألهم الأتراك عن المكان الذي قدموا منه، فأجابوهم بأنهم من طرابلس الغرب، وأنهم قدموا ليلتمسوا عون السلطان العثماني لهم في تحرير بلادهم، فاستقبلهم السلطان بحفاوة وأصغى إليهم، وقد قام بالترجمة بينه وبينهم المسيحي الأصل (أولوج) مراد آغا، والذي كان يتقن اللغة العربية، وفيما بعد أعاد السلطان سليمان القانوني الوفد بصحبة مراد آغا نفسه، واعترف به والياً على غريان⁷.

وهذا ما يثبت أن قدوم العثمانيين إلى سواحل شمال إفريقيا سواء في الجزائر أو تونس أو ليبيا كان بناء على طلب ورغبة من السكان المحليين الذي وجدوا في السلطان العثماني نصيراً وسنداً لهم ضد الغزاة الصليبيين، ولذلك فإن الدخول العثماني لليبيا كان بطلب شعبي وذلك بدعوتهم لهم أولاً ثم مساعدتهم في حربهم ضد الإسبان وفرسان مالطا الذين حلوا محل الإسبان عام 1530، ثم قبول حكمهم وسيادتهم على كامل البلاد الليبية. فهو ليس احتلالاً كما ادعى البعض، فلم ينكر قدوم هذا الوفد التاجوري إلى إستنبول سوى بعض المستشرقين المعروفين بعدائهم للدولة العثمانية وللمسلمين عموماً، ومنهم نيكولاي بروشين في كتابه "تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين"، فقد دأب هذا المستشرق على إظهار الأتراك بمظهر المحتلين المستعمرين والمتستترين بالإسلام، فنفى وجود مثل هذا الوفد التاجوري تاريخياً وعلق على هذا الحدث واصفاً إياه بالأسطورة!، هذا بالرغم من ثبوت قدوم هذا الوفد من مسلمي طرابلس وتاجوراء إلى إستنبول في المصادر العربية والعثمانية على حد سواء، وممن ذكر الحدث من المؤرخين ابن غلبون الطرابلسي في كتابه "التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار"، وأحمد بن الحسين النائب الأنصاري في كتابه "نفحات النسرين والريحان فيمن كان بطرابلس من الأعيان"، وقد اتهمهما بروشين بمحاولة التبرير لدخول الأتراك وتلميع تاريخهم، ولكن القارئ لتعليق بروشين على هذا الأمر يرى أنه لا يستند في إنكاره إلى أي مصدر تاريخي رصين، بل يتفرد بهذا الرأي ويخطأ جميع من خالفوه!⁸.

⁷إتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ط1، 1974، ص. ص 198-199.

⁸نيكولاي إيبيتش بروشين، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، بيروت، ط2، 2001، ص. ص 26-27.

لقد ذكر ابن غلبون الطرابلسي الوفد الليبي إلى السلطان العثماني في كتابه "التذكار"، حيث قال: "ولما انحاز المسلمون انتدب جماعة من أهل تاجوراء ركبوا شينياً وتوجهوا لصاحب القسطنطينية يطلبون منه إعانة، وكانوا لا خبرة لهم بلغة الترك، فلما حضروا إلى القسطنطينية استغرب أهلها زيهم وسألوهم من أي البلاد أنتم؟ فأخبروا أنهم من طرابلس الغرب قدموا لحضرة السلطان مستغيثين به، فأحضروا بين يديه. وكان مراد علجاً خصياً للسلطان، ربي بأرض المشرق وتعلم العربية فكان يعرب للسلطان عنهم، فأخبروه عن حال بلادهم وأخذ النصارى لها وتضييع ملوكهم دولهم، وأنهم يريدون منه إعانة على افتكاك بلادهم ووالياً يلي أمرهم"⁹.

وقد ذكر عزيز سامح هذه الحادثة بطريقة أخرى أيضاً في كتابه "الأترك العثمانيون في إفريقيا الشمالية": "ولما احتل الإسبانيون مدينة طرابلس لجأ الذين تمكنوا من الهروب إلى تاجوراء التي تبعد ستة عشر كيلو متراً، أما بقية الأنحاء وبرقة لم تقع في أيدي الأعداء، وعندما أدرك أهل طرابلس عجزهم عن التخلص من العدو بعثوا في عام 926هـ - 1519م إلى إستنبول وسيطاً ليطلب المساعدة وهناك قابله مراد أحد خدام القصر الذي كان يتكلم بالعربية، وحدثه وأفهمه ما تعانيه الدولة العثمانية من متاعب في ذلك الوقت، ومع ذلك فقد عرض أهل طرابلس على السلطان، الذي أمر بإسناد إمارة طرابلس إلى مراد آغا نظراً لمعرفته العربية وأرسل لها مزوداً بقليل من الجنود"¹⁰.

⁹أبو عبد الله محمد بن غلبون الطرابلسي، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار، تعليق: الطاهر أحمد الزاوي، القاهرة، 1349 هـ، ص 93.
¹⁰عزيز سامح، المرجع السابق، ص. ص 22-23.

ثالثاً: حملة سنان باشا وتحرير طرابلس من أيدي فرسان مالطا (الصلبيين)

في عام 1550م، وصل مراد آغا إلى طرابلس مع الوفد الليبي عائداً من إستانبول، واختار تاجوراء فنزل بها، وأخذ يُعد العدة للحرب، ويتخذ الإجراءات العسكرية اللازمة بالتنسيق مع قائد الأسطول العثماني سنان باشا لطرده فرسان مالطا (فرسان القديس يوحنا الصليبيين) من طرابلس وتحرير قلعتها¹¹. وقد ورد في الرسالة التي أرسلها المرشد الأكبر لمنظمة الفرسان في طرابلس إلى البابا في روما ما نصه:

"قد جاء إلى هنا التركي مراد آغا، وهو من أتباع بربروسا وقد أعلن نفسه ملكاً على تاجوراء، وهي أرض قريبة جداً من قلعة طرابلس، وقد استطاع بطرقه الخاصة أن يجمع حوله - إضافة إلى الأتراك الذين معه - عدداً آخر من العرب الذين ربطتهم به صلات ود وتحالف، ومن ذلك الوقت تعرضت القلعة إلى حرب متتابة متواصلة عادت بالضرر على الطرفين. ورغم أن ملك تونس - بتأييد من منظمنا - قد اهتم بطرد مراد آغا ولكنه لم يتمكن من ذلك، مما زاد في قوته كل يوم، سواء بتأييد من بربروسا أو من درغوث ريس، وهو قرصان كبير من الموالين له والمقربين إليه. وطبقاً للمعلومات المتوفرة لدينا فإنه بتأييد من بربروسه، وبتضامن واتفاق مع درغوث ريس والأهالي المجاورين، يعد العدة الآن لتنفيذ خطته للاستيلاء على القلعة. ويعتقد أنه سينفذ خطته تلك، ولو بالاقْتِصَار على الأقل على احتلال مدينة طرابلس التي تحيط بالقلعة. فإذا قدر له أن يحتلها فسيصبح من المتعذر الاحتفاظ بها والدفاع عنها. وإنه إذا حدث هذا - لا قدر الله - فسوف تكون خسارة فادحة لا لمملكة صقلية وكالابريا ولكنها خسارة للمسيحية بصفة عامة. وستكون وكراً للقراصنة الذين ستمتلئ بهم هذه البحار"¹².

وكما توقع المرشد الصليبي في رسالته، ففي آب/ أغسطس 1551م بعد الحصار البري والبحري الذي ضرب حول طرابلس، بدأ الهجوم على قلعة طرابلس التي كانت معقل فرسان مالطا، وقد قصفت القلعة لعدة أيام قصفاً شديداً ألحق بها أضراراً فادحة، فاضطر فرسان مالطا للاستسلام، وتمكن الأتراك العثمانيون من تحرير المدينة والقلعة ودخولهما في 14 أغسطس 1551م، وأقاموا احتفالاً كبيراً بانتصارهم. فعادت بذلك مدينة طرابلس إلى السيادة الإسلامية بفضل الله

¹¹ محمود السيد، المرجع السابق، ص 54.

¹² إتوري روسي، المرجع السابق، ص. ص 202-203.

تعالى أولاً ثم بالدور الكبير للمجاهدين العثمانيين والليبيين، وأصبحت من أهم القواعد البحرية العثمانية في ساحل المتوسط¹³.

وأقر السلطان سليمان القانوني مراد آغا على حكم البلاد، فأصبح بذلك أول والٍ تركي عثماني للبلاد، وقد واجه في مستهل عهده بعض المشاكل كان أهمها العمل على إعادة إعمار المدينة وترميم قلعتها، وإعادة الحيوية للحياة العامة، وقد نجح في مهمته، فاستقرت الأحوال في عهده، ونشطت الحركة التجارية، ورمم الحصون والقلع¹⁴.

أما برقة، فقد كانت تتبع لدولة المماليك في مصر، وبعد انهيار حكم المماليك ألحق الشرق الليبي (برقة) بالحكم العثماني، وبذلك أصبحت ليبيا كلها تحت الحكم العثماني¹⁵.

¹³ خليفة محمد التليسي، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، الدار العربية للكتاب، ط3، 1997، ص76.

¹⁴ خليفة التليسي، المرجع نفسه، ص. ص 76-77.

¹⁵ محمود السيد، المرجع السابق، ص55.

رابعاً: أوضاع ولاية ليبيا في مرحلة حكم ولاة الدولة العثمانية

بعد تحرير طرابلس أصبحت رسمياً ولاية تابعة عثمانية تحت اسم إيالة طرابلس الغرب لتميزها عن إيالة طرابلس الشام. وفي عام 1864م وبعد الإصلاحات الإدارية استبدلت الإيالة بولاية طرابلس الغرب. وبهذا بدأ عصر الولاة العثمانيين في ليبيا، وبلغ عددهم حتى بداية عهد القرمانليين أربعة وأربعون والياً¹⁶.

إن من محاسن دخول العثمانيين إلى ليبيا هو دورهم في تشكيل نواة الدولة الحديثة المركزية في ليبيا، فقد كانت ليبيا تحكم بشكل صوري من قبل الأسر الحاكمة المجاورة كالفاطميين والموحدين والحفصيين والمماليك وغيرهم، بينما يكون الحكم الفعلي للقبائل والعشائر المحلية المنتشرة في طول البلاد وعرضها. وبعد الدخول العثماني أصبحت إدارة ليبيا إدارة مركزية فعلية عن طريق وال يعينه السلطان العثماني مباشرة، ويحظى بدعم أمراء الجيش العثماني، وكان أولهم مراد آغا، وقد استمر الحكم على هذا النظام إلى عام 1711م مع استلام أحمد باشا القره مانلي للحكم مؤسساً لسلسلة حاكمة من نسله تحكم ليبيا باسم الباب العالي في إستانبول¹⁷.

¹⁶ محمود السيد، المرجع السابق، ص55.

¹⁷ عائد عميرة، "كيف حكم العثمانيون ليبيا لأكثر من 3 قرون؟"، 16/3/2018، موقع نون بوست، انظر: <http://bit.ly/372IjNI>

خامساً: الدور الجهادي للولاة العثمانيين في الدفاع عن ليبيا

تصدى الوالي العثماني مراد آغا لغارة قام بها فرسان مالطا بقيادة أسقف كابوا على سواحل ليبيا عام 1552م، حيث كان هدف هذه الغارة أن يقوم الفرسان باسترقاق بعض سكان المدن الساحلية الليبية لاستخدامهم في الأعمال الدفاعية في مالطا. نزلت سفن الصليبيين بزوارق، وتمكنوا من أسر ألف وخمسمئة أسير من الليبيين، ولكن في طرق عودتهم إلى سفنهم فقد فوجئوا بأربعة آلاف من الجنود العثمانيين بقيادة مراد آغا كانوا قد كمنوا لهم، فالتحم الطرفان، ونصر الله المجاهدين ومكنهم من عدوهم، فألحقوا بالمالطيين خسائر فادحة، حيث قتل جلهم وحرر الأسرى وعادوا سالمين غانمين¹⁸.

وعندما توفي مراد آغا في عام 1556م، طلب درغوث باشا تعيينه حاكماً على طرابلس، وتم له ذلك. فحمل درغوث باشا على عاتقه الدفاع عن طرابلس، واتخذ من الجهاد ضد الغزاة الفرنجة والصليبيين هدفاً أساسياً في حياته، فأصبح يجول على سواحل أوروبا وأفريقيا متعقباً الفرنجة ومن والاهم فيغير عليهم ويعود إلى بلاده مظفراً محملاً بالغنائم فينفقها لخدمة المدينة وأهلها، وقد اعتمد درغوث باشا على القوات العثمانية في حملاته العسكرية، فقويت شوكة الحامية العثمانية في عهده¹⁹.

زحف درغوث نحو قفصة في تونس التي كانت تقع تحت الحكم الإسباني، واستطاع الاستيلاء على جربة وقلعتها، وأقام فيها برجاً كبيراً للدفاع عنها، وسرعان ما أرسل الإسبان حملة صليبية لحصار طرابلس واسترداد جربة عام 1560م، فتصدى لها درغوث باشا ومن معه من المدافعين العرب والأتراك في جربة ببسالة.

ثم عاد درغوث ومن معه إلى مدينة طرابلس في انتظار الهجوم المتوقع والذي لم يحصل، حيث وصل الأسطول العثماني بقيادة بيالي باشا وهزم الأسطول الصليبي قرب جربة، واستولى على تسع عشرة سفينة (غاليرا) من سفن العدو الكبيرة. فحوصرت قوات الحملة الصليبية في جربة بدلاً من أن تحاصرها، وقد ظل قائدهم (دون ألفارو) يقاوم الحصار دون جدوى، فاستسلمت القوة الصليبية، وانتهت هذه الحملة البائسة بعد أن قتل الكثير من أفرادها²⁰.

وفي عام 972هـ أعلنت الدولة العلية العثمانية الحرب على مالطا، وذلك لأن فرسان مالطا كانوا يحرضون الباباوات والدول الأوروبية ضد المسلمين، فوصل في نفس العام الأسطول العثماني إلى أطراف جزيرة مالطا وحاصرها.

¹⁸ إتوري روسي، المرجع السابق، ص217.

¹⁹ محمود السيد، المرجع السابق، ص55.

²⁰ إتوري روسي، المرجع السابق، ص. ص223.225.

وما إن سمع درغوث باشا (والي ليبيا العثماني) بذلك حتى التحق بركب المجاهدين، فخرج من طرابلس في اثنتي عشرة سفينة وشارك في فرض الحصار على المالطيين، فاستشهد في إحدى المعارك التي وقعت بين الجانبين عام 973هـ، وجيء بجثته إلى طرابلس ودفن فيها، ومازال قبره رحمه الله يزار باعتباره أحد الشهداء، وأحد كبار المجاهدين الذين جاهدوا ضد الحركة الاستعمارية الصليبية²¹. لم يقتصر دور العثمانيين على مقاتلة الغزاة الصليبيين من أوروبا، بل طهروا الشمال الأفريقي من المتحالفين مع الغزاة من الحكام المحليين في إفريقيا، ففي ولاية مصطفى باشا وتحديداً في عام 980هـ، استنجد حيدر باشا والي القيروان بوالي طرابلس للدفاع عن تونس ضد غزو الإسبان الذين استنصر بهم واستقدمهم محمد بن الحسن آخر الأمراء الحفصيين. فخرج مصطفى باشا بجيشه من طرابلس إلى القيروان، ثم التحق بهم سنان باشا الذي أرسلته القيادة العثمانية في إستانبول لهذا الغرض أيضاً، ففتحوا تونس عنوة، وتم دحر العدوان الإسباني، وهرب محمد بن الحسن الحفصي ومن معه، وتم نصر الله للمجاهدين في جمادى الأولى سنة 980 هـ، وألحقت بذلك ولاية تونس بالدولة (الإسلامية) العثمانية²².

وهكذا فقد استمرت الحركة الجهادية طوال العهد العثماني الأول، وقد قام العثمانيون بدور عظيم في الدفاع عن ليبيا وسواحل إفريقيا في وقت حرج تعامل فيه معظم حكام المنطقة مع المستعمرين الأوروبيين، ولذلك فقد بدا العثمانيون الأوائل في نظر الطرابلسيين كمحررين ومنقذين من النير الصليبي، ومدافعين عن الدين الإسلامي وأهله²³.

²¹ الطاهر أحمد الزاوي، ولاية طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، بيروت، ط1، 1970، ص. ص 157-158.

²² الزاوي، المرجع السابق، ص 160.

²³ إتوري روسي، المرجع السابق، ص 220.

سادساً: ليبيا في ظل حكم الأسرة القرمانلية

في عام 1711م، وصل إلى حكم ليبيا أحمد باشا القره مانلي، وبايعه أمراء الجيش العثماني بالإجماع، وتخلص من المناوئين لحكمه، وأقر السلطان حكمه على ليبيا وأعطاه قدراً من الحكم الذاتي، مما مكن أحمد باشا من جعل الحكم في سلالته من بعده ليبدأ عهد الأسرة القره مانلية حتى عام 1835م. وكان امتلاك القره مانلين لأسطول قوي وتنظيم إداري نوعي مكنهم من التنعم بنوع من الاستقلال، واستقلوا في الشؤون الخارجية دون الرجوع للسلطان في إستانبول²⁴

يعتبر يوسف باشا القرمانلي من أبرز ولاة هذه الأسرة، فقد كان حاكماً طموحاً عمل على فرض القوة الإسلامية على البحر المتوسط وفرض الجزية على السفن الأوروبية والأمريكية العابرة في المياه قبالة السواحل الليبية. وفي سبيل ذلك فقد دخل يوسف باشا في حرب ومواجهات بحرية مع الأسطول الأمريكي من أجل فرض سيادته على البحر المتوسط، وبعد صراع شديد، انتصرت القوات البحرية الليبية العثمانية على الأسطول الأمريكي مما دفع الولايات المتحدة الأمريكية لعقد معاهدة بينها وبين يوسف باشا تلتزم فيها أمريكا بدفع رسوم وضرائب سنوية لليبيا، مقابل عدم التعرض لسفنها وتأمين ملاحتها البحرية في المتوسط²⁵. وهكذا حظيت ليبيا في عهد يوسف باشا القرمانلي بالقوة والهيبة والرقى، وأصبحت مُهابة لدى كل القوى الكبرى في ذلك التاريخ.

²⁴ عائد عميرة، المرجع السابق.

²⁵ عميرة، المرجع السابق.

سابعاً: ليبيا في مرحلة الحكم العثماني المباشر (إعادة الاستقرار إلى ربوع ليبيا)

أصبح حكم القره مانلليين هشاً ضعيفاً بعد وفاة يوسف باشا، فكثرت الاضطرابات والأزمات، وأعلن عدة زعماء محليين العصيان ضد علي باشا القرمانلي، هذا وقد كان علي باشا في صراع مع منافسه محمد بك القرمانلي على السلطة، ومما زاد من سوء الوضع هو تآكل بعض المناطق الإسلامية واحتلالها من قبل الفرنسيين مثل تونس والجزائر، كل ذلك زاد من قلق السلطنة العثمانية وحرصها على استعادة الحكم المباشر في ليبيا للمحافظة على السيادة الإسلامية هناك، قبل أن تسبقهم فرنسا التي كانت (وما زالت) تغذي الوضع المضطرب في ليبيا، فليس من مصلحة فرنسا أن تدار طرابلس الغرب من الباب العالي، فالعثمانيون لن يكتفوا بذلك، وسيتدخلون في تونس والجزائر، ويحاولون طرد الفرنسيين منهما²⁶.

وقد وصل الأسطول العثماني المكون من اثنتين وعشرين سفينة حربية تحمل ستة آلاف من العساكر النظاميين بقيادة الفريق مصطفى نجيب باشا إلى سواحل طرابلس، فسيطر عليها من دون حرب، واعتقل علي باشا القرمانلي مع بعض أقربائه والمقربين منه، وأرسلهم إلى إستانبول عام 1835م، وبذلك انتهت مرحلة الحكم القره مانلي وعاد الحكم العثماني²⁷.

في مرحلة الحكم العثماني المباشر بعد عام 1835م، تتابع على حكم ليبيا عدة ولاة عثمانيين بعد مصطفى نجيب باشا وأدهم الباشا الذي أسسوا للوجود العثماني الحقيقي مرة ثانية. وفي الفترة الأولى سادت بعض القلاقل والاضطرابات، إلى أن جاء سامي باشا عام 1874م، فاستطاع أن يوطد الحكم في البلاد ويخضعها للسلطة المركزية، وشجع الصناعات والحرف المحلية، ونظم الضرائب، ثم خلفه في الحكم مصطفى عاصم باشا الذي كان رجلاً حازماً فاضلاً، فقد اتصل بنفسه مع السكان لسماع شكاياتهم، وتجول لهذا الغرض في البلاد، وقضى على الرشوة²⁸، وأصلح الأمور الإدارية والخدمية.

وفي عام 1879م، تولى أحمد عزت باشا ولاية ليبيا، فأسس مدرسة الصناعات في طرابلس، وبنى مستشفى للغرباء، وسوقاً سماه "سوق الحميدية"، كما أصلح أسوار المدينة وتحصيناتها، وبنى منارة لها، فاستطاع أن يكسب احترام الأهالي وتقديرهم. وفي فترة ولاية أحمد راسم باشا وهي أطول فترة قضاها وال عثمانى دامت لخمس عشرة عاماً. أسس فيها المدرسة الحربية في باب البحر، وجلب

²⁶ إتوري روسي، المرجع السابق، ص411.

²⁷ محمود ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، طرابلس، 1970، ص 170.

²⁸ راسم رشدي، طرابلس الغرب في الماضي والحاضر، طرابلس، ليبيا، 1953، ص100.

الماء إلى طرابلس بالأنابيب، وأمر بزراعة الآلاف من شجر التوت لتربية دودة القز من أجل استخراج الحرير وصنعه. ثم في عهد الولاة الذين تلوهم، أسست مدرسة الفنون والصنائع في طرابلس، كما تم إنشاء سوق جديد باسم "سوق المشير"، وتم تأسيس المدرسة العليا، وبنى العديد من المدارس الابتدائية²⁹.

ويجدر بالذكر أنه في هذا العهد انتشرت الدعوة السنوسية في مناطق ليبيا، والتحق بها الكثير من أبناء ليبيا، ولم تصطدم الدعوة السنوسية مع الدولة العثمانية، بل على العكس لقيت دعماً من العثمانيين باعتبارها دعوة إلى الدين؛ فهي تجمع المسلمين وتدعو إلى وحدتهم تحت راية الإسلام، ودعوة للاستقرار لا للاقتتال. ولذلك فقد شجعت الدولة العثمانية الدعوة السنوسية، واعترفت بالإمام محمد بن علي السنوسي ثم بابنه المهدي السنوسي أئمة للحركة السنوسية، كما أعفت أملاك الزوايا السنوسية من الرسوم والضرائب، وسمحت للجماعة السنوسية بجمع ضريبة من أتباعها، وحتى أنه في عهد السلطان عبد العزيز اعتبرت الزوايا السنوسية (حمى) يلجأ إليها الناس³⁰.

²⁹رشدي، المرجع السابق، ص 100.

³⁰ محمود السيد، المرجع السابق، ص 63.

ثامناً: إنجازات الإصلاح والتحديث العثماني في ليبيا

أدخل العثمانيون ما يعرف بقوانين التنظيمات وهي مجموعة من القوانين الإصلاحية الاقتصادية والإدارية إلى نظم الإدارة والحكم في ليبيا، فأحدثوا تغييرات عميقة في البلاد. وعمدوا إلى تقوية سلطتهم المركزية مما دعم الاستقرار؛ فازدهرت الحركة التجارية والزراعية ونمت المدن، فزاد عدد سكان المدن من البدو والرحل، كما أن العثمانيين عملوا على تطوير القطاع التعليمي، فكونوا نخباً متعلمة وفق النموذج التعليمي والثقافي (الإسلامي) العثماني³¹.

ومن الإجراءات الإصلاحية التي قام بها العثمانيون خلال إدارتهم لولاية ليبيا في مرحلة الإصلاح والتحديث:

- **في المجال التعليمي:** ظلت ليبيا خالية من المدارس العامة والتعليم النظامي إلى نهايات القرن التاسع عشر، وقد كان النظام التعليمي يعتمد على نظام الكتاتيب، ولكن الحكومة العثمانية عمدت إلى إنشاء مدارس نظامية وفق النظام الحديث في طرابلس وبنغازي ودرنة والخمس وغيرها³².

كما أنشأ العثمانيون عام 1899م مدرسة الفنون والصنائع، حيث كان يديرها ضابط برتبة اليوزباشي، لتعليم أبناء الأيتام وبناتهم الحرف والصناعات اليدوية، فجعلوا لها أوقافاً كثيرة. كما أنشأ العثمانيون مكتب "الرشيدية" في طرابلس لتخريج الضباط العسكريين. والذين يرسلون بعد تخرجهم إلى اسطنبول لإتمام تحصيلهم في الكلية العسكرية هناك. وتم في عهدهم أيضاً إنشاء المكتب السلطاني للتعليم العالي، ومدرسة الزراعة بسيدي المصري، ومدرسة المعلمين العليا بطرابلس. وقبيل الغزو الإيطالي كان عدد المدارس الابتدائية في ولاية طرابلس 166 مدرسة حيث كانت تعرف هذه المدارس باسم (رشدية مكثبي)³³.

- **مجال حرية الصحافة والطباعة:**

تشير الأبحاث والدراسات إلى أن تاريخ أولى المطبوعات كان بعد بضع سنوات من حكم العثمانيين لليبيا للمرة الثانية، وتحديداً في عام 1866م حيث أصدرت أول صحيفة باسم "طرابلس الغرب"، وهي أقدم جريدة في ليبيا كلها³⁴.

وقد شجع العثمانيون الصحافة، فكانت تصدر في طرابلس ثمانية جرائد أسبوعية، واحدة منها تصدر باللغة التركية. كما كانت تصدر مجلة علمية أدبية

³¹ عائد عميرة، المرجع السابق.

³² فرانشكو كورو، المرجع السابق، ص100.

³³ راسم رشدي، المرجع السابق، ص111.

³⁴ فرانشكو كورو، المرجع نفسه، ص127.

شهرية كان يحررها ويصدرها محمد داود بك باللغة العربية. وجلبت مطبعتان كبيرتان إلى البلاد، إحداها مطبعة مدرسة الصنائع، والثانية مطبعة الحكومة.³⁵

- مجال الإنشاء والعمران:

شيد العثمانيون خلال عهدهم الأول والثاني الكثير من المساجد والقلاع والقصور والمباني الحديثة، وأنشأوا الطرق والأسواق، وبعضها لا يزال يحمل أسماء ولاتهم إلى اليوم. وما زال برج الساعة المشهور في البلدة القديمة ينطق بعناية واهتمام العثمانيين بالإنشاء والتعمير. كما أن تاريخ إنشاء أحياء أبي الخير وميرزان وشارع الزاوية والعزيرية في طرابلس على ذلك العهد.

وكان الأتراك العثمانيون أول من مد خطوط البرق، فوصلت بين أجزاء البلاد حتى مرزق في أقصى الجنوب، كما أنشأوا المواصلات البريدية بين المدن والقرى.³⁶

وجملة القول: بعد استعادة السلطان العثماني ولاية طرابلس من ولاته القرمانليين، ووضعها تحت حكمه المباشر عام 1835، قام بإدخال العديد من الإصلاحات في المجالات الإدارية والسياسية والاقتصادية للبلاد، فأدخل نظام المجالس الإدارية والإصلاحات القضائية والتعليمية وأسس محاكم الأحوال الشخصية والجنايات، وذلك لتجريد الزعماء المحليين من صفة الوساطة ومَنحها لممثلي الباب العالي³⁷، فأدت الإصلاحات العثمانية إلى ظهور نخبة جديدة من المثقفين السياسيين المنخرطين في المشروع التحديثي العثماني. حيث تكونت فئة من المثقفين من أعضاء المبعوثان وخريجي المدارس الرشدية الحديثة، فأدخلوا أدوات عمل جديدة إلى ليبيا، حيث أنشأ شُبان طرابلس جمعياتٍ سياسية وعلمية منها جمعية فوائد ونصائح خيرية في طرابلس عام 1882م. وعندما شعر القناصل الأوروبيين بخطرهما على مصالحهم ضغطوا على الباب العالي لإغلاقها، وكان أبرز ما جاء في أهداف جمعية الفوائد في ذلك التاريخ ذِكْرُ حدود الوطن كوحدةٍ سياسية³⁸.

جاءت حزمة الإصلاحات العثمانية في ليبيا بمثابة حركة تنموية واكبت مسيرة الإصلاح والتحديث التي أجراها العثمانيون في دولتهم خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، وهو ما أدى في نهاية المطاف إلى تكوين مركزية وبيروقراطية حكومية في ليبيا تتعامل مع الرعية كأفراد لا كجماعات مما أضعف

³⁵ راسم رشدي، المرجع السابق، ص 112.

³⁶ رشدي، المرجع السابق، ص 113.

³⁷ المولدي الأحمر، الجذور الاجتماعية للدولة الحديثة في ليبيا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 2009، ص 265.

³⁸ المولدي الأحمر، المرجع السابق، ص 292.

دور الزعامة المحلية³⁹. وكما أعطت الإصلاحات العثمانية الشباب الليبي هويةً حديثة؛ فالحياة في ظل الدستور والمشاركة البرلمانية للشباب الليبيين في مجلس المبعوثان العثماني تركا أثراً واضحاً في تنامي الأفكار الوطنية التي ستلتقي مع الأفكار السنوسية (الجهادية) لمواجهة الاستعمار، والعمل على تكوين الهوية الوطنية الليبية الجامعة.

³⁹عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية "دراسة في الهوية والوعي"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط5، 2009، ص151.

تاسعاً: الدور التركي العثماني في التصدي للغزو الإيطالي لليبيا وتأخيره

كانت إيطاليا تحلم بضمّ شمال إفريقيا؛ لأنها تراه ميراثاً إيطالياً، كما صرّح رئيس وزرائها ماتزيني، ففرنسا احتلت تونس، وإنجلترا احتلت مصر، ولم يبق أمام إيطاليا إلا ليبيا. وقد رسمت إيطاليا سياستها في ليبيا على ثلاث مراحل:

الأولى: الحلّ السلمي، بإنشاء المدارس، والبنوك، وغيرها من «مؤسّسات خدمية».

الثانية: العمل على أن تعترف الدُول بآمال إيطاليا في احتلال ليبيا بالطرق الدبلوماسية.

الثالثة: إعلان الحرب على الدُول العثمانية والاحتلال الفعلي.

وكانت السياسة الإيطالية لا تلتفت النّظر إلى تحركاتها، بعكس السياسة البريطانية، أو الفرنسية في ذلك الوقت، وكان الإيطاليون يتحرّكون «بحكمة» و«هدوء» شديدين دون إثارة حساسية العثمانيين.

1. تدابير السلطان عبد الحميد الثاني أمام الأطماع الاستعمارية الإيطالية في

ليبيا

كان السلطان عبد الحميد متيقظاً لتلك الأطماع الإيطالية، وطلب معلومات من مصادر مختلفة عن نشاط الإيطاليين في ليبيا وأهدافهم، فجاءته المعلومات تقول: (إنّ للإيطاليين بمدارسهم، وبنوكهم، ومؤسّساتهم الخيرية التي يقيمونها في الولايات العثمانية، سواءً في ليبيا، أو في ألبانيا هدفاً أخيراً هو تحقيق أطماع إيطاليا في الاستيلاء على كلِّ من:

- طرابلس الغرب.
- ألبانيا.
- مناطق الأناضول الواقعة على البحر الأبيض المتوسط: أزمير - اسكندرون - أنطاكية.

قام السلطان عبد الحميد الثاني باتخاذ التدابير اللازمة أمام الأطماع الإيطالية، ولما شعر: أنه سيواجه اعتداءً إيطالياً مسلحاً على ليبيا، قام بإمداد القوات العثمانية في ليبيا بـ (15000) جندي لتقويتها، وظلّ يقضاً حسّاساً تجاه التحركات الإيطالية، ويتابعها شخصياً، وبدقّة، ويطلع كلَّ ما يتعلّق بالشؤون الليبية بنفسه بواسطة سفير الدُول العثمانية في روما، ووالي طرابلس العثماني، مما

جعل الإيطاليين يضطرون إلى تأجيل احتلال ليبيا، وتمّ لهم ذلك في عهد جمعية الاتحاد والترقي⁴⁰.

2. دور القادة الأتراك في جهاد الغزو الإيطالي في ليبيا (بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني)

في عام 1908م، وقعت ثورة جمعية الاتحاد والترقي، ولم يستقبل الشعب الليبي هذه الثورة بارتياح، فقد كان التعلق الروحي بالسلطان طاغياً في نفوس المسلمين، فأثار الإعلان عن الحكم الجديد اضطرابات شعبية في طرابلس. وكان الوالي في تلك الفترة رجب باشا، وهو أحد زعماء جمعية تركيا الفتاة، ولذلك فقد عينته حكومة الاتحاد والترقي وزيراً للحربية، فسافر إلى إستانبول، واستقبل هناك استقبال المنتصرين.

وقد تسببت هذا التغيير في طبيعة الحكم ونظامه في السلطنة العثمانية في زعزعة الاستقرار في كافة الولايات ومن بينها ليبيا، إذ سادت حالة من الفوضى، وتبدل عدد من الولاة العثمانيين على طرابلس في الفترة ما بين 1908-1911 كان آخرهم أحمد راسم باشا، وقد استغلت إيطاليا تدهور الأوضاع، فاستولت على ليبيا في تلك الفترة⁴¹.

وكانت إيطاليا قد تحرشت بالأتراك العثمانيين عدة مرات، محاولةً بذلك خلق ذريعة لإعلان الحرب على الدولة العثمانية، كما أرسلت أساطيلها إلى السواحل الطرابلسية للاستكشاف، وقد اتخذوا خطة تدريجية للسيطرة على طرابلس أثناء ولاية رجب باشا، فأنشأوا بعض المؤسسات التجارية والثقافية في محاولة منهم لكسب ثقة السكان واستمالتهم إلى جانبهم⁴².

وبالرغم من الاضطراب وحالة الخوف في ولاية طرابلس الغرب، وقلة المدد من العاصمة العثمانية، فقد كان اهتمام الولاة العثمانيين في تلك الفترة منصباً على عرقلة التدخل الأجنبي في طرابلس الغرب وبرقة، وحماية الحدود من التغلغل الإنكليزي في مصر شرقاً أو الفرنسي في تونس والجزائر وأفريقيا الوسطى غرباً وجنوباً، والحد من التغلغل التجاري والثقافي والأمني الطلياني بكل الطرق. وفي سبيل ذلك، فقد حاول الولاة أن يرفعوا في الأهالي روح الجهاد والتضامن ضد الغزاة (الكفار)، فأعفوا أهالي القبائل من بعض الضرائب، مقابل أن تزود القبائل الجيش العثماني بالعناصر المعروفة باسم (القولوغلية)⁴³.

⁴⁰ علي محمّد الصلابي، الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط1، 2001، ص. ص 436-437.

⁴¹ إتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ص489.

⁴² راسم رشدي، المرجع نفسه، ص100.

⁴³ إتوري روسي، المرجع نفسه، ص488.

وبعد أن ساءت العلاقات بين إيطاليا والدولة العثمانية، أعلنت إيطاليا الحرب على تركيا، ووجهت إنذاراً إلى الصدر الأعظم في إسطنبول تطلب منه تسليم ليبيا، وبدأت برقيات الاستغاثة من شيوخ وزعماء ليبيا تصل إلى الباب العالي، نتيجة لذلك قامت وزارة سعيد باشا بإعلان الحرب على إيطاليا بتاريخ 29 أيلول/ سبتمبر 1911م. كما استعد الطرابلسيون، فشكّلوا خطاً دفاعياً عن سواحل ليبيا من المجاهدين العرب ومن الجنود الأتراك، وكان عددهم ثلاثة آلاف رجل. وعندما وصلت البوارج الحربية الإيطالية، بدأت بقصف المدينة بقنابلها، وأنزل الإيطاليون جنودهم في المدينة وكان عددهم 120 ألفاً مجهزين بأحدث الأسلحة. ولما تقدم الإيطاليون واجهوا مقاومة عنيفة والتحموا مع المجاهدين في معركة عنيفة في 23 تشرين الأول/ أكتوبر عام 1911م، فقتل في هذه المعركة الآلاف من الإيطاليين، واضطروا للتقهقر، لذا صبّوا جام غضبهم على سكان طرابلس، فقتلوا الشيوخ والأطفال، واستشهد عدد كبير من الناس في ذلك اليوم. واستمرت مقاومة الشعب الليبي لهذا الاحتلال مشتتة، وخاضوا معه معارك ضارية بعزم ونفوس غيورة على الدين والوطن، واستمر الأمر كذلك إلى أن عقدت الدولة العثمانية معاهدة أوشي مع إيطاليا في تاريخ 18 أكتوبر 1912م⁴⁴.

وما إن بدأت الحرب العالمية الأولى حتى اتصل الأتراك العثمانيون بالليبيين واتفقوا معهم على محاربة إيطاليا، وبالفعل فقد أمد العثمانيون الليبيين بالذخائر والأسلحة عن طريق الغواصات الألمانية، وقدم إلى ليبيا بعض الضباط الأتراك ومعهم المال المطلوب لتمويل الحرب، وقد قام الطرابلسيون بإنشاء حكومة وطنية عامة 1914م في مصراته برئاسة رمضان السويحلي، وعين الأتراك الأمير عثمان فؤاد حفيد السلطان مراد أميراً على البلاد، وتولى إسحاق باشا القيادة العامة للجيش الطرابلسي، فشنوا على الإيطاليين حرب عصابات أجبرت الإيطاليين على التقهقر إلى داخل العاصمة واحتموا بها حتى نهاية الحرب التي انتهت بهزيمة الدولة العثمانية وحلفائها⁴⁵.

- دور القائد التركي أنور باشا في الجهاد الليبي

أرسلت تركيا القائد العسكري أنور باشا قائداً عاماً ببرقة، فوصل إليها من تركيا عن طريق مصر، ونزل بمنطقة درنة، فاتخذ منها مركزاً لقيادته، واتصل برؤساء الزوايا، وزعماء القبائل، وشرع في ترتيب المعسكرات إدارياً وعسكرياً، تحت إشراف قادة المناطق، ومجالس شيوخ الحركة السنوسية، وشيوخ القبائل الليبية، ووزعت القبائل نفسها على معسكرات الجهاد، وتكفلت كل قبيلة بالمؤمن والخيل والسلاح والرجال، ويتناوب رجال كل قبيلة على المعسكرات بين كل

⁴⁴راسم رشدي، المرجع السابق، ص. 101-102.

⁴⁵رشدي، المرجع السابق، ص. 103.

خمسة أشهر أو ستة أشهر، ونزل أحمد الشريف إلى الجغبوب مواصلاً دعمه الكبير لحركة الجهاد بكل ما يستطيع⁴⁶.

ومع مجيء أنور باشا إلى شرق ليبيا لقيادة عمليات المجاهدين ضد إيطاليا أصبحت الجبهة البرقاوية تشن هجومات مكثفة على الإيطاليين، وكانت علاقة أحمد الشريف بأنور بك علاقة قوية ومحترمة، وكانت الرسائل لا تنقطع بينهما، ففي شهر نيسان/ أبريل عام 1912 م بعث أحمد الشريف برسالة إلى أنور بك، يظهر فيها تأييده للدولة العثمانية، ويشكر أنور كثيراً لجهاده الطليان، ويَعِدُّ بالنصر المبين من عند الله سبحانه وتعالى⁴⁷، ويذكر أنور بك في مذكراته أن رسالة وصلته من السيد أحمد الشريف في شهر تموز/ يوليو 1912، يشكره فيها على جهوده وجهاده، ويحثه على المزيد، ويدعو الله لنصرة الإسلام وقهر أعدائه الإيطاليين⁴⁸.

بذل أنور باشا مجهوداً عسكرياً، وأخلص في حربه ضد إيطاليا، وأحبه الشعب الليبي لنشاطه، وشجاعته النادرة، فكان محل تقدير الشيوخ وإعجابهم، وأحب أنور باشا المجاهدين الليبيين وأظهر إعجاباً بهم في مذكراته؛ حيث يقول: «القبائل العربية ترسل لي مقاتليها، ويأتون على شكل جماعات صغيرة، كل واحد يحمل سلاحاً قديماً على كتفه، رابطاً رصاصاته في حزامه، وفي يديه بضع كيلوات من الدقيق، وبين القادمين مسنون بيض اللحي، وصبيان لم يبلغوا سن الخامسة عشرة، إن أعمارهم لا تمنعهم من مواجهة الموت مع رفاقهم جنباً إلى جنب، لهم إيمان راسخ بأن أقدارهم مرسومة بإرادة الله، فمهما يكن لن تتغير، فإذا حان الأجل لن يتخلص منه أي مخلوق، ولهم قول مأثور رائع: «إذا أراد الرب فلا مناص من الشهادة، فالشجاع يموت مرة واحدة، أما الجبان فيموت كل يوم مئة مرة»⁴⁹.

ويتحدّث أنور باشا عن تشكيلات المجاهدين الليبيين ودور المرأة في الجهاد، فيقول: «... وعلى الأغلب يكون هناك جمل واحد من نصيب كل عشرة مقاتلين، وعليه يحملون الخيمة التي يشتركون فيها، وترافقهم امرأتان من العشييرة تعملان على إعداد الخبز، وخياطة الملابس، وتنظيف السلاح»⁵⁰، كما يتحدّث عن اشتباك وقع بينهم وبين الإيطاليين استمر لمدة تسع ساعات، حقق المجاهدون فيه نصراً عظيماً، وكان من بين الجرحى مجاهدة أصيبت بقذيفة في صدرها، رغم

⁴⁶ محمد الطيب الأشهب، برقة العربية بين الأمس واليوم، مطبعة الهوارى، القاهرة، 1945، ص 62.

⁴⁷ الطيب الأشهب، المرجع السابق، ص 62.

⁴⁸ مصطفى علي هويدي، الحركة الوطنية شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى، تحقيق صلاح الدين حسن السورية، طرابلس، 1988، ص 33.

⁴⁹ مصطفى هويدي، المرجع السابق، ص 33.

⁵⁰ أورخان قول أوغلو، مذكرات الضباط الأتراك حول معركة ليبيا، ترجمة: وجدي كدك، مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي، طرابلس، 1979، ص. ص 60-61.

ذلك رفضت البقاء بالمستشفى، وعادت إلى الجبهة لتلهب معنويات المجاهدين⁵¹

وقد تأثر أنور باشا بالمجاهدين الليبيين، وقال عنهم: "مثال رائع وفريد للتفاني دون قيد أو شرط"⁵²، وقال: "تلاشت ذكرياتي عن حياتي الماضية، وأصبحت في طي النسيان، وأشعر كأنني لم أعاش أحدًا غير العرب، ولم أشاهد مكانًا غير الصحراء، رغم ما أقضيه من أيام محروماً من كل شيء، فإن هذه الحياة تولد لدي أحاسيس غريبة، هذه الحياة تتخللها حوادث تسعدني كسعادة الطفل في العيد"⁵³.

ولقد اعترف أنور باشا بتأثير أحمد الشريف على سير الحرب ضد إيطاليا، فقال: «... رسائله تشكل بصورة واضحة أهمية كبيرة بالنسبة لي كرمز للصدقة، ولأنه الشخص الوحيد الذي يتمتع بتأثير سلبي أو إيجابي في هذه الحرب...»⁵⁴.

ويتحدث بإعجاب عن شجاعة قبيلة الحسا وموقفها الصلب من الإيطاليين، فيقول: «استلمت اليوم الأنباء الأولية من درنة، خسارة الإيطاليين تفوق توقعاتي؛ بلغت 800 قتيل وجريح، عثر الإيطاليون على الجرحى الذين تخلى عنهم والبالغ عددهم (21) أكثريتهم من رجال قبيلة الحسا، من أبناء جبل برقة، فقد أرسل الإيطاليون رسولاً ليلبغهم: الموافقة على إطلاق سراح الجرحى إذا تخلى أبناء حسا عن الاشتراك في القتال، وكان رد القبيلة كالآتي: إنكم أتيتم لتدمير بلادنا، سنبقى أمناء لأوامر الله والسلطان، اتحدنا لنحاربكم، واعتبرنا الأسرى موتى منذ فترة وبكيناهم، ولكن كل ذلك مضى، وسواء أطلقتم سراحهم أم لا، فسنحاربكم حتى آخر رجل، نوصيكم بمعاملة الأسرى بالحسنى، ولا تنسوا ما في أيدينا من رجالكم. أشعر بالفخر لكوني قائداً لمثل هؤلاء الرجال، لأنني أحارب معهم في صف واحد...»⁵⁵.

ويتحدث أنور باشا بفخر عن الليبيين، فيقول: «جنودي شجعان مستمرين في تأدية واجباتهم، هناك عائلة لم يبقَ من أفرادها غير الأب، قتل أولاده الأحد عشر، وصهره، عندما قدمت له التعازي قال لي: إنني فخور وسعيد؛ لأنهم قتلوا في المعركة من أجل الوطن والدين»⁵⁶.

- الضابط التركي أمين بك في الجهاد الليبي

تأثر الضباط الأتراك لما رأوا من شجاعة الليبيين في ساحات المعارك ضد المستعمر، فهذا الضابط العثماني أمين بك يتحدث في رسائله إلى زوجته عما رآه

⁵¹ أورخان قول أوغلو، المرجع السابق، ص 61.

⁵² أوغلو، المرجع السابق، ص 63.

⁵³ أوغلو، المرجع السابق، ص 75.

⁵⁴ أوغلو، المرجع نفسه، ص 77.

⁵⁵ أوغلو، المرجع نفسه، ص 81.

⁵⁶ أوغلو، المرجع نفسه، ص 94.

في ليبيا، نقتطف منها حديثه عن الشيخ لطيف بن طويلة، فيقول: "كان خطيباً بارعاً ومجاهداً، قُتل أولاده في طبرق، وذكر في رسائله بعض خطبه التي كان يلقيها على المجاهدين، فبيّن أن الشيخ أكد بالحاح على أن الحرب ليست سياسية بقدر ما هي دينية، وفي هذه الحرب لا تجابه أمم بعضها البعض، وإنما هي أديان تجابه أدياناً، وأن العرب يجب ألا يدافعوا عن أرضهم فحسب، وإنما أيضاً عن عقيدتهم وتقاليدهم... وأقسم على القتال حتى لا يبقى في ليبيا إيطالي أو أوروبي، وقال: «يا إلهي إننا نتعرض للغزو من جانب أهل الظلم والبغي، فلنشرب كأس الانتقام ببطء حتى نطفأ غليل ظمئنا...»⁵⁷.

ويقول أمين بك: "إن وقع صوت الشيخ في نهاية الخطبة كان مثل وقع البوق، لقد كانت عيون ألف من العرب (المجاهدين) تتوقد حماساً وهي تنظر إليه، وقد وقفوا جميعاً في صف الجهاد"⁵⁸. ويقول عن الليبيين: "إن جرأة هؤلاء الناس لا يُعلى عليها، وأما دوافعهم إلى الاستهانة بالموت فهي ذات أساس فلسفي: أرغب أن أموت في الحرب شاباً على أن أموت على فراشي شيخاً، فما من مجد في الموت الناجم عن مرض الشيخوخة"⁵⁹.

هكذا كانت شهادات الضباط الأتراك بالمجاهدين الليبيين الذين حركتهم عقيدتهم وحبهم لدينهم، وحرصهم على الشهادة في سبيل الله تعالى. وزاد ما قال الأستاذ معروف الرصافي عن ملحمة الجهاد العثماني-الليبي في ليبيا:

ومن مبلغٍ عنا «السنوسي» أنه	يمد لهذا الصدع منه يد الرأب
فإننا لنرجو أن يقود إلى الوغى	طلائع من خيل ومن إبل نجب
فيحمي بلاد المسلمين من الردى	وينهض كشافاً لهم غمة الخطب
فإن حشا الإسلام أصبح دامياً	إلى الله يشكو قلبه شدة الكرب
فقم أيها الشيخ «السنوسي» مدركاً	جنود بني «عثمان» في الجبل الغرب
وكن أنت بين الجند قطب رحي الوغى	وهل من رحي ألا تدور على قطب ⁶⁰ .

3. دور السيد أحمد الشريف السنوسي في تركيا

نتيجة سوء الأوضاع في ليبيا، بعث أحمد الشريف قائده محمد صالح حرب إلى الأمير عثمان فؤاد المتواجد في مصراته، وحمّله رسالة هامة إليه، يطلب من الأمير العثماني أن تقوم إحدى الغواصات الألمانية بنقله إلى إستانبول ليقابل صديقه

⁵⁷ أوغلو، المرجع السابق، ص 98.

⁵⁸ مجلة الشهيد، العدد الخامس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، 1985، ص 197-198.

⁵⁹ مجلة الشهيد، المرجع السابق، ص 198.

⁶⁰ مجلة الشهيد، المرجع السابق، ص 341.

القديم أنور باشا (وزير الحربية آنذاك)، وليبحث معه تطورات الموقف في ليبيا. وعلى ضوء ذلك، يمكن أن يرجع السيد أحمد مزوداً بكل ما يساعده على الاستمرار في الجهاد في ليبيا، أو أن يبقى في إستانبول مؤقتاً حتى يتسنى له الذهاب إلى الحجاز (الأراضي المقدسة بمكة والمدينة)؛ حيث يخلص العبادة إلى الله بعد أن عمل ما في وسعه من أجل قضية بلاده⁶¹.

وقد اجتمع محمد صالح حرب مع الأمير عثمان فؤاد، وأوضح له ظروف السيد أحمد الشريف، وبيّن له معظم آرائه ومطالبه، كما اجتمع برمضان السويحي مع الكثير من أعيان مصراته ووجهائها، وعاد مندوب أحمد الشريف بسلام، وكانت نتيجة هذه الرحلة العمل على نقل أحمد الشريف إلى العاصمة العثمانية بوساطة إحدى الغواصات الألمانية، وبالفعل وضعت وزارة الحربية الألمانية تحت تصرف أحمد الشريف غواصة لنقله مع بعض أتباعه إلى النمسا، واتفق على أن تبقى قواته في منطقة العقيلة في انتظار عودته، على أن تتلقى من القيادة العثمانية في مصراته، ما يمكن أن تجود به عليها مما كانت تحضره إليها الغواصات الألمانية⁶².

ووصلت الغواصة الألمانية إلى برقة، وكان بها يوسف باشا شتوان وحسام الدين بي، وهما عضوان هامان في منظمة تشكيلات مخصوصة⁶³، ويحملان رسالة من السلطان محمد وحيد الدين إلى السيد أحمد الشريف، يدعوه فيها لزيارة إستانبول، والسبب الحقيقي لهذه الدعوة هو أن الحالة في تركيا أصبحت تنذر بالخطر العظيم بسبب ثورة أمير مكة الشريف حسين ضدها، ومتابعة القبائل والجيوش العربية له، وانحلال جبهات القتال في فلسطين وسورية والعراق، وكانت الحكومة العثمانية تثق كامل الثقة في إخلاص السيد أحمد الشريف للإسلام والخلافة، فأرادت أن تقنعه بالدخول في مفاوضات بينها وبين الشريف الحسين بن علي، على أن تعطي الشريف حسين مطالبه، هذه هي الحقيقة التي طُلب من أجلها، أما في الظاهر فهو كما ذكر في وقته لتقليد السيف للسلطان عند جلوسه على العرش، وللمفاهمة معَه في خصوص ليبيا⁶⁴.

وبعد الطريق الأوروبي (بعد النمسا) تابع السيد أحمد السنوسي رحلته إلى إستانبول، وهناك استقبله كبار رجال الحكومة العثمانية استقبالاً حافلاً ورسمياً في محطة (سركه جي)، حضره بعض المسؤولين العثمانيين، يتقدمهم صديقه أنور باشا وزير الحربية العثمانية، كما حضره أيضاً إبراهيم بك، وإحسان بك كاتب

⁶¹ علي محمد الصلابي، الثمار الزكية في تاريخ الحركة السنوسية، دار الروضة، إستانبول، 2017، ص. 372-373.

⁶² مصطفى هويدي، المرجع السابق، ص 172. وفي كتابي: الثمار الزكية في تاريخ الحركة السنوسية، المرجع السابق، ص 373.

⁶³ هويدي، المرجع السابق، ص 172.

⁶⁴ عبد العزيز بن باز، الفوائد الجليلة في المباحث الفرضية، السعودية، ط1، 1418هـ، 2/49.

الديوان السلطاني، وفؤاد بك مدير التشريفات، وعلي رضا شيخ الإسلام وأمين الفتوى. وأنزل بسراي طوب كوبر، التي كانت مقر الخلفاء من ال عثمان⁶⁵، وفي اليوم التالي خصصت له مقابلة رسمية مع السلطان وحيد الدين، الذي منحه وسام النيشان المجيدي من الرتبة الخامسة⁶⁶.

ورغم بُعد السيد أحمد الشريف عن ميادين الجهاد في ليبيا، إلا أنه واصل جهوده من أجل تحرير ليبيا، وكان منها:

اتفق مع أنور باشا، والسلطان العثماني على الرجوع، لتقوى به عزائم المجاهدين، وقرر الأتراك مده بالمال، والعتاد والسلاح وتقرر إعطاؤه (12000) بندقية مع عدتها، وعشر مدافع، وثلاثين رشاشاً، و(200000) جنيه، فسأله السيد قائلاً: "بلغني من بعض الضباط الطرابلسيين الذين في خدمة الدولة، أنكم تبغونني أقاتل ابن عمي سيدي إدريس، لكونه اتفق مع الإنكليز والطلليان، فقال له أنور: معاذ الله أن نبغي منك ذلك، لأننا نعلم أنه لم يبق للإسلام في إفريقيا حصن أحسن من هذا البيت السنوسي الكريم، وإنه إن وقع لا سمح الله الشقاق في هذا البيت فسد الأمر، واضمحت القوة السنوسية التي عليها معول الإسلام في إفريقيا، فكن على ثقة بأننا نبغي اتحادكم قبل كل شيء، نصحاً بالإسلام وضناً باستقلاله، وإن معاونتنا لكم إنما هي محض حمية على الإسلام؛ لأن تركية من جهتها لم يبق لها أدنى أمل باسترداد طرابلس؛ ولأننا لا نحب إخواننا مسلمي إفريقيا تبعة للأجانب"⁶⁷.

وتتابعت الحوادث بسرعة البرق، فتغيرت الوزارة في تركية، وسقط أنور، وندم أحمد الشريف على تأخره عن السفر، وحاول الانسلا من إستانبول إلى النمسا، حتى يركب منها الغواصة راجعاً إلى ليبيا، واضطر مع دخول الحلفاء إلى الذهاب إلى بروسه، وكان الأتراك أينما حل يكرمونه غاية الإكرام، وكان في نيتهم الوقوف مع مجاهدي ليبيا، ولكن سبق السيف العذل، وحصل ما لم يخطر ببال، والأمر بيد الله وهو الفعال في ملكه ما يشاء، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

وبعد انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى واحتلالهم للأراضي التركية، قرر أحمد الشريف بعد تفكير طويل الذهاب إلى الأناضول والانضمام إلى قوات مصطفى كمال، رغم ما جاء من الرسل والرسائل من طرف السلطان وحكومته يحذرونه من الانخداع بمظاهر مصطفى كمال المصطنعة، وادعاءاته الكاذبة، ويقولون لسيادته: هذه كلها حيل لكسب عطف الشعوب الإسلامية عليه، وإذا تمكن فسوف يقلب المجن، ويكون حرباً على الإسلام، وإليك ما كتبه الداماد خالد

⁶⁵ سراي طوب كوبي يقع على ضفة البوسفور الغربي، وهو من أجمل مناطق إستانبول.

⁶⁶ ابن باز، الفوائد الجلية، المرجع السابق، 2/52.

⁶⁷ لوثرروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي وقضايا المعاصرة، تحقيق شكيب أرسلان، دار الفكر، بيروت، 1971، 2/155.

درويش باشا: «يا مولانا يا خادم الإسلام! يا فرع الدوحة النبوية المباركة! إياك أن تغترب بمظاهر الدين التي يصطنعها مصطفى كمال للوصول إلى غايته فإنني ربيته في بيتي، وبين عائلتي، وعرفت ظاهر أمره وباطنه؛ فما في قلبه ذرة من إيمان أو خوف من الله أو مبالاة بما يعمله، ودينه هواه، ولو تمكن لأضر في الإسلام والمسلمين، وأنا كابنك وأخيك ومحبك أقول لك هذا، ولولا محبتكم التي ملكت عليّ جميع جوارحي ما قلته لكم، وربما سيكون قولي هذا في يوم من الأيام جريمة نؤاخذ عليها، ونسأل الله أن يرشدنا إلى ما فيه سعادتنا في الدارين، آمين... المحب المخلص: الداماد خالد درويش، جمادى الأولى عام 1338 هـ»⁶⁸.

كل ذلك لم يُغير عزمه، سافر أحمد الشريف إلى الأناضول، ونزل في اسكي شهر، وكان انضمام أحمد الشريف نصراً عظيماً لمصطفى كمال لما له من المنزلة الروحية الكبيرة في قلوب مختلف الشعوب الإسلامية، وكان الناس يعتقدون أن أحمد الشريف لا يميل إلا إلى الجبهة التي على الحق، واحتفل به قائد الجبهة في اسكي شهر المدعو عصمت باشا، ودعا إلى الاحتفال قادة الجيش، وأعيان البلاد، ووجهاءها، وألقى كلمة في ذلك الاحتفال الكبير، فقالوا: "إنكم اليوم في ميدان الشرف، وإنكم الآن بعملكم هذا تعيدون للإسلام عزه ومجده وتنفضون عنه الغبار الذي علق به، وتخلّدون بطولتكم، وتكتبون في صحائف التاريخ الإسلامي أسماءكم بحروف من نور، وعليكم أن تتموا هذه الرسالة العظيمة التي كلفتم بها، وأن تغنموا هذه المكرمة، وفقكم الله وأعانكم"⁶⁹.

وتأثر بتلك الكلمة الحاضرون، وقالوا: يا مولانا لقد أيقظتم فينا الهمم، وبعثتم فينا روح القوة، والمقاومة، والاستماتة في سبيل إعادة عزتنا ومجدنا، ولكن علينا عهد الله وميثاقه أن نمضي في هدفنا حتى النصر أو الشهادة.

ثم توجه أحمد الشريف بعد مقامه في (اسكي شهر) إلى أنقرة بالسكة الحديدية، وفي محطة أنقرة قابله مصطفى كمال وكافة رجاله، وكان يوماً حافلاً بأنواع المظاهر والزينات، ونزل في منزل مصطفى كمال الخاص به، وبدأت اتصالات مصطفى كمال مع السيد الشريف في أمور كثيرة⁷⁰.

- عرض مصطفى كمال على أحمد الشريف نيابة الخليفة وجهاده مع الأتراك:

عرض مصطفى كمال على أحمد الشريف منصب نيابة الخليفة الإسلامي، وقال لحضرته: "إن كافة الوزارات أصبح لها عندنا وكلاء يقومون باختصاصاتها بصفة مؤقتة حتى تمام النصر إن شاء الله تعالى، غير أن مقام نيابة الخليفة لم نجد له من يليق به إلا سيادتكم، ونرجو أن تتموا لنا هذا النقص في جهازنا، ولكم علينا

⁶⁸ ابن باز، الفوائد الجلية، المرجع السابق، 58- 2/57.

⁶⁹ ابن باز، الفوائد الجلية، المرجع نفسه، 60- 2/59.

⁷⁰ ابن باز، الفوائد الجلية، المرجع السابق نفسه.

ميثاق الله وعهده أننا سنقوم بكل ما يترتب علينا نحو هذا المقام، ونرجو أن تتموا لنا نقصنا هذا"، فقال له السيد أحمد الشريف: "أنتم الآن مشغولون بما هو أهم، مشغولون بصدّ العدو المهاجم لكم، والمحيط بكم من كل ناحية، وتحتاجون إلى من يؤازركم فعلياً في ميادين الجهاد لا من يجلس على الكرسي، ثم أنتم فيكم البركة وإجراءاتكم حكيمة وصائبة، وأنا أحب أن أساهم معكم فعلياً في جهادكم هذا بقدر استطاعتي في أي جهة كانت، وأرجو أن تعذروني، وسوف يأتي الوقت الذي لا تحتاجون فيه إلى غيركم، وأنا معكم في السراء والضراء حتى يتم النصر إن شاء الله"، فقال له مصطفى كمال: "أنا مطمئن، وواثق من ذلك، وهذا ظني وظن كل من يشاركني في هذه الثورة، وفي الحقيقة ما تعلمت هذه الدروس المفيدة ولا تشربت في جسمي هذه الروح الأبية إلا في مدرستكم التي أسستموها في برقة المجاهدة، وها أنتم اليوم تؤسسونها عندنا من جديد، وبذلك سننتصر بحول الله وقوته، وسنجنّي ثمرة جهادنا هذه ببركة مشاركتكم لنا، ووجودكم بيننا، فأنت الأب، وأنا الابن، وكل ما تراه صالحاً مرناً به ونحن على أتم الاستعداد للتنفيذ وفي اتباعنا لكم شرف لنا"⁷¹.

لقد أتقن الضابط مصطفى كمال دور النفاق والتدليس، قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِقَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ*} [البقرة: 204-206].

ولقد ساهم أحمد الشريف بطلب من مصطفى كمال في إخماد ثورة الأكراد، وخرج إليهم والتقى بشيوخهم، ودعاهم إلى الوحدة، والوقوف صفّاً واحداً ضد أعداء الدين، وطلب شيوخ الأكراد من أحمد الشريف أن يقيم بوسطهم، ويتولى أمرهم، فامتنع عن ذلك، وقال: "إنما أنا مجمّع ولست مفرق، ومصالح ولست بمفسد". فسمع الأكراد، وأطاعوا، وأخذ عليهم موثيق غليظة لوقوفهم مع مصطفى كمال، وبقي في ديار بكر ونصيبين وماردين مدة ستة أشهر حتى تحقق تماماً من تهدئة الحراك الكردي.

في تلك الفترة، كانت القوات اليونانية قد استولت على ولاية أزمير وبروسه ومدانيه، وعلى كوتاهيه، وإسبارطة، وأفيون قره حصار، وإسكيشهر، وأخيراً قصدت العاصمة أنقرة، حتى لم يبق بينها وبين أنقرة إلا عدة كيلو مترات، واضطربت الأحوال، وارتبكت حكومة أنقرة، وبدأ مصطفى كمال يوالي برقياته المطولة المثيرة إلى سيادة أحمد الشريف، ويقول لسيادته فيها: تغلب علينا

⁷¹ابن باز، الفوائد الجلية، 2/60. وانظر كتابي: الثمار الزكية في تاريخ الحركة السنوسية، المرجع السابق، ص 380.

العدو، فاضرعوا إلى الله ليدركنا بعنايته، وكانت برقيات مثيرة تأثر منها أحمد الشريف تأثراً بالغاً، وردَّ أحمد الشريف على برقيات مصطفى كمال، وقال له: ثق بالنصر من الله، ويأتيك الغوث إن شاء الله تعالى، ثم انتدب إليه رفيقه في جهاده الشيخ محمد عبد الله الزاوي، وأعطاه مصحفاً شريفاً، وسيفاً وبرنساً من ملابسه الخاصة، وقال له في كتابه الخاص: بعثت إليك بمصحف الله تعالى، وسيف النصر، وكسوة العز والفوز إن شاء الله تعالى.

فلما وصل الزاوي إلى مصطفى كمال وهو في الجبهة على رأس الجيش المستमित على نهر سقاريا سلّمه الرسالة، وأعطاه الأمانة، فأمر مصطفى كمال بالتعبئة العامة، والهجوم المعاكس على العدو، ورتب الجبهة. وفي صباح اليوم الذي قرر فيه بدء الهجوم جمع القادة يتقدمهم رئيس أركان حربه فوزي باشا، وعصمت باشا، ورأفت باشا، وغيرهم، ثم لبس البرنس المرسل له من السيد أحمد الشريف، وتقلد السيف، وعلق المصحف الشريف، ثم تقدم وصلى بهؤلاء القادة ركعتين بحضور محمد عبد الله الزاوي، وتضرعوا إلى الله وطلبوا العون والنصر، ثم أطلق مصطفى كمال من يده رصاصة الهجوم، وبدأت معركة الاستماتة، ودامت ثلاثة أيام بلياليها، فني خلالها ما ينوف على العشرين ألفاً من الأتراك، وما يزيد على الثلاثين ألفاً من اليونان، واختلت في نهايتها مقدمة جيش اليونان، وولت فلوله على أعقابها وتعقبتها الجيوش الكمالية، وكان ذلك بداية الانتصار النهائي على اليونان⁷².

وبعد ذلك الانتصار الحاسم ورجوع الحكومة الكمالية إلى أنقرة زار أحمد الشريف مصطفى كمال مهناً بالنصر، واحتفلت به الحكومة التركية، ثم ذهب إلى طرسوس، وفي أثناء إقامته بها قام مصطفى كمال بجولة تفقدية في أنحاء الأناضول، وعرج على ولاية أضنة، وأتى خصيصاً لزيارة أحمد الشريف، فأقام أحمد الشريف لمصطفى كمال حفلة غداءً فخماً، حضره كل من معه من القادة، كما حضرها عموم أعيان البلاد ووجهاؤها، والموظفون، وفي أثناء جلوس الجميع على المائدة وقف مصطفى كمال، وقال مخاطباً قاداته الحاضرين باللغة التركية: «أيها الإخوان! اسمحوا لي لأعرفكم بمن نحن في حضرته، وعلى مائدته؛ نحن الآن في حضرة فخر المسلمين، وحفيد سيد المرسلين، المجاهد السيد أحمد الشريف السنوسي، معلمنا الأول، ومؤسس أول مدرسة في برقة، كما وفدنا إليها، وتلقينا دروس الجهاد، والمقاومة، والدفاع عن النفس، والدين، والوطن، بها، وهذا - ويشير إلى سيادة أحمد الشريف - هو الذي غرس في نفوسنا شجرة الدفاع الثابتة، وهو الذي أزرنا في محنتنا القاسية، وشجعنا بأفكاره، وآرائه الصائبة حتى نلنا شرفنا وعزتنا، وأنقذنا من براثن أعداء بلادنا، فله من الحكومة والشعب التركي

⁷² ابن باز، الفوائد الجلية، المرجع السابق، 67- 2/65.

كمال الشكر والتقدير، ثم اختتم كلامه وجلس». فقابله سيادته بكلمات شكر، وقال: الشكر لله وحده؛ هو الذي أيدكم ونصركم، ومزق أعداءكم بسبب جدكم واجتهادكم وتوحيد صفوفكم، ونرجو من الله لكم مزيد التوفيق.

وبعد إقامته في طرسوس لمدة سنة تقريباً انتقل أحمد الشريف إلى مرفأ مرسين، وفي أثناء إقامته وفد إليه صديقه الحميم أمير البيان الأمير شكيب أرسلان، وأتت بعض وجوه الناس من ليبيا، وأرسل الرسائل إلى ابن عمه محمد إدريس، وإلى قائد حركة الجهاد الغر الميمون عمر المختار يحثه على مواصلة الجهاد⁷³.

تغيرت الأحوال بعد إلغاء السلطنة العثمانية عام 1924، وبدأت السلطات التركية تضايق أحمد الشريف، وأحكمت الرقابة على كل من له تعلق بالسيد، أو يزوره، وعلى المكاتبات الواردة إليه، والصادرة منه، ثم سحب بعض الجنود والضباط الذين كانوا مرافقين للسيد للقيام بحراسته وخدمته، وأخيراً توقفت المصاريف التي كانت تعطى لسيادته لمدة أربعة أشهر، وقام الأتراك المحبين للسيد بواجب الضيافة، ولكن خشيت الحكومة حدوث ما لا تحمد عقباه، فقرروا إبعاد أحمد الشريف عن تركيا، أو إلزامه بالإقامة الجبرية في قرية عثمانية تابعة لولاية أضنة مدة حياته دون اتصال بأحد ما، وبذلك أبلغت حكومة مصطفى كمال أمرها هذا للسيد أحمد الشريف السنوسي بوساطة والي ولاية أضنة، فقال أحمد الشريف عندما سمع القرار: "كنت أتوقع ذلك منذ خلع عبد المجيد"، وغادر السيد أحمد الشريف إلى سورية ثم إلى الحجاز⁷⁴.

⁷³ ابن باز، الفوائد الجلية، المرجع السابق، 69-2/68.

⁷⁴ علي محمد الصلابي، الثمار الزكية في تاريخ الحركة السنوسية، المرجع السابق، ص. 387 - 389.

عاشراً: العلاقات الليبية التركية بعد الاستقلال الوطني الليبي (النصف الثاني من القرن العشرين)

إن المتتبع لتطور العلاقات الليبية-التركية، يرى أنها مرت بمراحل وصفته بالتقارب والتعاقد والأخوة، وبعد خروج المستعمر الغربي من ليبيا وحصول ليبيا على استقلالها الوطني لم تنقطع العلاقات الليبية التركية، ففي المرحلة الأولى كانت الدولة التركية؛ منذ قيام النظام الجمهوري وحتى نهاية الأربعينات من القرن العشرين، منشغلة بتنظيم أمورها الداخلية، وأدارت ظهرها لأزمات العالم الخارجية، ولكن عاد نشاطها الخارجي في عقد الستينات وما بعده، وخصوصاً مع العالم الإسلامي. وتلك السياسة التركية لم تأت من فراغ، بل جاءت تلبية لمتطلبات المرحلة الاقتصادية والسياسية والأمنية⁷⁵.

1. العلاقات التركية الليبية في عهد ملك ليبيا محمد إدريس السنوسي

لم تشهد العلاقات التركية - الليبية أهمية تذكر في بداية مرحلة الاستقلال الوطني إلا في فترة وقوف الملك محمد إدريس السنوسي مع كفاح الشعب الجزائري ضد الاستعمار الفرنسي، وكانت الحكومة الليبية برئاسة مصطفى بن حليم⁷⁶، وقد ترك لنا مذكرات تحدث فيها عن تجربته السياسية في تلك الفترة.

كان رئيس الحكومة مصطفى بن حليم متعاطفاً مع القضية الجزائرية، ووجد دعماً كبيراً من الملك إدريس، فمضى في طريقه بثقة واطمئنان. ولذلك عندما زار عدنان مندريس رئيس الوزراء التركي ليبيا في شباط/ فبراير عام 1957 م اختلى ابن حليم بعدنان مندريس، وبدأ حديثه عن دور الأتراك التاريخي العظيم في نشر الإسلام وزعامتهم للأمة الإسلامية عبر قرون عديدة من التاريخ الإسلامي المجيد، وشدد على روابط الدين التي تربط الأتراك ببقية الأمة الإسلامية، وعلى أن لتركيا دورها الإسلامي العظيم بالرغم من دعاوى العلمانية، ثم عرّج بحديثه عن شمال إفريقيا، وشرح لمندريس مدى الظلم والألم والقتل والتشريد الذي يعاني منه شعب الجزائر المناضل، ومحاولات فرنسا قمع ثورته الإسلامية وتنصيره وفرنسته، ثم دخل في صلب الموضوع، وقال لعدنان بك: "إنني آمل أملك قوياً أن تمد تركيا الشقيقة المسلمة الكبرى يد المساعدة لشعب الجزائر المجاهد في محنته الراهنة"⁷⁷.

وقال عدنان مندريس: إنه كمسلم يعطف بكل جوارحه على الشعوب الإسلامية جميعاً، وبنوع خاص على شعوب الشمال الإفريقي، وهو على إدراك تام بما يعانيه

⁷⁵رياض شمس، نمو مستمر للعلاقات التجارية التركية العربية، مجلة عالم التجارة، المجلد 17، العدد 1، لندن، 1982، ص 43.

⁷⁶مصطفى أحمد بن حليم، صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، طرابلس، 1992، ص. ص 358-359.

⁷⁷علي محمد الصلابي، الثمار الزكية في تاريخ الحركة السنوسية، المرجع السابق، ص. ص 714 - 716.

الشعب الجزائري في حربه الاستقلالية، ثم قال: ولقد بذلت تركيا الكثير من المساعي السرية الحميدة لدى حكومة باريس موصية وناصحة بأن مشكلة الجزائر لا تحل بالقوة والقمع، بل بحلول سياسية وتفاوض مع ممثلي سكان الجزائر، وأضاف إنه على استعداد لمضاعفة هذه المساعي بل وتوسيعها بحيث تشمل ضغطاً ودياً لدى دول حلف الأطلسي الأخرى؛ مثل: الولايات المتحدة وبريطانيا وإيطاليا. وقام السيد مصطفى بن حليم يشكر عدنان مندريس على مساعيه الدبلوماسية الطيبة، وحثه على المواصلة، وقال له: "إن مساعدة شعب الجزائر تتطلب أكثر من المساعي الحميدة؛ فهي تتطلب عوناً مادياً، مالياً وسلاحاً"، ونظر عدنان مندريس إلى مصطفى بن حليم وظهر على وجهه الاضطراب واختفت الابتسامة التي كانت تلازمه كثيراً، ثم قال للسيد مصطفى بن حليم: يا أخي العزيز! أنت تعرف أن تركيا عضو هام في حلف الأطلسي؛ فكيف ترى أن تقدم لثوار الجزائر سلاحاً من سلاح الحلف الأطلسي لكي يحاربوا به عضواً هاماً آخر من ذات الحلف. أعني: فرنسا؟ فقال مصطفى بن حليم: أنا أعرف أن تركيا من أقوى الدول الإسلامية، وهي التي كانت تتولى القيادة والريادة للأمة الإسلامية لقرون عديدة، فكيف ترى أنت يا أخي العزيز ألا تمد تركيا العون المادي للجزائريين المسلمين الذين تقتلهم قوات فرنسا وتشردهم أو تعذبهم أنكل التعذيب؟ وما لهم من ذنب إلا أنهم يسعون لنيل حريتهم واستقلالهم!

كرر مندريس مخاوفه الشديدة من عواقب اكتشاف أي شبهة بأن تركيا تمد الثورة الجزائرية بأي عون مادي... وكرر عدة مرات بأن هذا سيسبب طرد تركيا من حلف الأطلسي، وهو الركيزة الرئيسة التي يركز عليها دفاع تركيا في مواجهة الخطر السوفيياتي العظيم. وكان ابن حليم يشعر بأن مخاوف عدنان مندريس حقيقية، فهدأ من روعه، وقال له: إن الثورة الجزائرية في أشد الحاجة إلى أنواع كثيرة من الأسلحة الحديثة، وهذه الأسلحة متوفرة لديكم، فإذا أعطيتكم كسفاً مفصلاً بهذه الأسلحة وأهديتموه أنتم إلى شقيقتكم ليبيا، فليس في هذا ما يثير أي شك أو ريب لدى فرنسا، وقال مصطفى لعدنان: "إن الليبيين سوف يقومون بتسريب السلاح إلى الإخوان الجزائريين تدريجياً"، ووعده بأن لا يعلم هذا السر إلا القيادة الجزائرية العليا، بل عدد قليل من أفراد تلك القيادة العليا، وواصل ابن حليم حديثه مع ضيفه رئيس وزراء تركيا عدنان مندريس، واستعرض له ماضي تركيا الإسلامي وتاريخها في الذود عن الإسلام، وإعلاء كلمته، ومزج السياسة بالعاطفة الدينية، إلى أن قال عدنان مندريس: سنقدم لكم هدية السلاح، وأرجو الله أن يوفقكم في إيصالها لأولئك الذين يحتاجونها في الدفاع عن دينهم، أما نحن في تركيا فإننا نقدم الهدية لجيش ليبيا الشقيقة فقط، وشدد على المحافظة على السرية

المطلقة. وبعد أسابيع قليلة، وصلت هدية السلاح التركي، واستلمها الجيش الليبي في احتفال عسكري، ثم بدأ تسريبها تدريجياً إلى أبطال الثورة في الجزائر.⁷⁸

2. العلاقات التركية الليبية في عهد القذافي

بعد حدوث الانقلاب على حكم ملك ليبيا محمد بن إدريس السنوسي في أيلول/سبتمبر 1969، كان الملك الليبي خارج البلاد، إذ كان قد غادرها في 12 حزيران/يونيو 1969، متوجهاً إلى اليونان برفقة زوجته الملكة فاطمة وعدد من أفراد حاشيته، ومن ثم توجه إلى تركيا للاستراحة والمعالجة الطبية في آب/أغسطس من السنة نفسها، واستقر به المقام في مدينة بورصة التركية، وكان الملك غالباً ما يقضي شهراً من فصل الصيف من كل عام في تركيا للاستجمام والاستشفاء.⁷⁹

لقد كان الملك السنوسي يقيم في الفندق الكبير في مدينة بورصة عندما سمع نبأ الانقلاب، بينما وجدت تركيا نفسها في وضع حرج للغاية ولم تستطع أن تتخذ موقفاً واضحاً من العهد الجديد، وذلك لعلاقتها الجيدة مع ليبيا في العهد الملكي⁸⁰، وأصبحت تركيا في موقف يحتم عليها اتخاذ بعض الإجراءات التي من شأنها المحافظة على مصالحها واستمرار العلاقة الطيبة مع ليبيا حكومةً وشعباً، ولم يصدر اعتراف صريح من الخارجية التركي بالنظام الجديد في ليبيا. وحتى لا يسبب الملك حرجاً للجانب التركي قرر التوجه إلى أوروبا مع عائلته ومرافقيه، وأعلن أنه سيعود إلى ليبيا في أقرب وقت ممكن.⁸¹

تعاملت تركيا مع النظام الجديد بكثير من الحيطة والحذر، إذ قررت الحكومة التركية بعد عدة أسابيع من الانقلاب في ليبيا إيفاد أمين عام وزارة الخارجية التركية أرهان إيرالب، وهو يحمل رسالة من الرئيس التركي جودت صوناي إلى العقيد معمر القذافي للتعرف على أهداف الانقلاب. وبعد لقاء أرهان بالمسؤولين في حكومة القذافي، وعلى أثر عودة المبعوث التركي أعلنت أنقرة أنها ستواصل علاقاتها مع النظام الجديد في ليبيا والذي أصبح أمراً واقعاً.⁸² ومع ذلك فإن هذه العلاقة لم ترقى إلى المستوى الذي كانت عليه في العهد الملكي الليبي، واستمرت كذلك حتى دخلت تركيا بجيوشها إلى جزيرة قبرص، لتضع حداً للصراعات الدائرة فيها، فكان الموقف الليبي من القضية القبرصية قد أعطى بُعداً جديداً للعلاقات بين البلدين، وكانت البادرة الأولى بتجديد الاتفاقية التجارية لعام 1968م.

⁷⁸مصطفى أحمد بن حليم، صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، المرجع السابق، ص. 361-363.

⁷⁹يوسف شديد، بين السياسية والدبلوماسية؛ ذكريات ومذكرات، دار النهار، بيروت، 2001، ص 152.

⁸⁰شديد، المرجع السابق، ص 152.

⁸¹جريدة الشرق، بيروت، العدد 6605، 5 أيلول/سبتمبر 1969.

⁸²شديد، المرجع السابق، ص 152.

عادت العلاقات التركية الليبية إلى مجراها الطبيعي، وشهدت آفاقاً واسعة، حيث وصل إلى طرابلس الغرب في 26 كانون الثاني/يناير 1979 رئيس الوزراء التركي بولند أجاويد، وتم توقيع اتفاقية في 30 من الشهر نفسه، ونصت الاتفاقية على إقامة مشاريع مشتركة في مجال التقنيات الزراعية والصناعية وفي المجالين الفني والعلمي، وكذلك الأيدي العاملة والبنوك، وزيادة كميات النفط التي تصدرها ليبيا إلى تركيا. وعلى أثر توقيع الاتفاقية وصلت عشرات الشركات التركية في مجال بناء السدود والمرافئ العامة والفنادق والطرق إلى ليبيا، فضلاً عن الوعود الليبية بتقديم قروض مريحة لها، في وقت ارتفعت مكانة تركيا لدى حلف شمال الأطلسي⁸³.

وفي عام 1981، زار نائب رئيس الوزراء التركي تورغوت أوزال ليبيا، لبحث العلاقات الاقتصادية وتوسيع حجم التبادل التجاري بين البلدين، وقد تم خلال الزيارة التوصل إلى عقد بروتوكول شامل للتعاون الاقتصادي والخدمي، وكان أوزال متحمساً لتطوير علاقات تركيا بالعالم العربي والإسلامي قاصداً بذلك إحياء الروابط الإسلامية والتاريخية المشتركة بينهما، إلا أنه وبعد الأزمة الاقتصادية وهبوط الدينار الليبي تم توقيف عدة شركات تركية عن العمل، وشهدت العلاقات بين الطرفين فتوراً، فزار الرئيس التركي كنعان ايفرن ليبيا عام 1987 لحل المشكلات العالقة بين البلدين، وكانت الزيارة تهدف إلى تعزيز العلاقات الثنائية، فقد قال ايفرن: "أنا أعتقد أن هذه الزيارة ستفتح آفاقاً جديدة للصدقة القوية بين بلدينا والروابط القوية بين شعبينا"، وظهرت نتائج الزيارة في السنة اللاحقة؛ إذ بدأت أعداد العمال الأتراك الوافدين إلى ليبيا بالازدياد، وحصول الشركات التركية في ليبيا على عقود عمل جديدة وزيادة عدد السياح وغير ذلك. وكانت العلاقات بين الجانبين مبنية على أساس أخوي وتاريخ مشترك بين الشعبين. وفي تلك الفترة أعرب القذافي عن أمله بأن تقف تركيا إلى جانب بلاده في مطالبتها الحكومة الإيطالية بدفع التعويضات لبلاده لقاء السنين التي حكمت البلاد، والخراب الذي لحقها، واستغلال خيراتها، وعبر حينها القذافي بأن الدعم التركي لبلاده سيجعل موقف الإيطاليين صعباً، وأن الواجب الأخلاقي والتاريخي يدعوها إلى الوقوف إلى جانب ليبيا⁸⁴. وتحولت جمعية الأخوة الليبية التركية إلى رابطة قوية للعلاقات بين الدولتين، حتى وصلت العلاقات الثنائية إلى أعلى مستوياتها في مرحلة التسعينات والعقد الأول من الألفية الثالثة الميلادية في مجال التجارة والسياسة الخارجية واتفاقات الأمن الإقليمي والملاحة في مياه المتوسط. وتطور الحال حتى وصل

⁸³سيد جلال الدين المدني، تاريخ إيران السياسي المعاصر، ترجمة سالم مشكور، مطبعة العالم الإسلامي، طهران، 1993، ص 381 - 408.

⁸⁴محمد علي داهش وعوني عبد الرحمن السبعواوي، "العلاقات الليبية التركية 1969 - 1990" مجلة دراسات تركية، العدد 4، ص 40 - 42.

التبادل التجاري بين تركيا وليبيا عام 2010 إلى نحو 9.8 مليار دولار، وأعلنت ليبيا أنها ستمنح الشركات التركية استثمارات بقيمة 100 مليار دولار حتى عام 2013، وأعلنت عن استثمارات لتركيا في قطاع التشييد وصلت قيمتها إلى 15 مليار دولار. وفي عام 2010 دخل ستة عشر مشروعاً تنموياً تركيا حيز التنفيذ في البلاد الليبية.

الحادي عشر: تطور العلاقات التركية الليبية بعد ثورة فبراير (2011 - 2019م)

تطورت العلاقات التركية الليبية بعد الثورة الليبية في فبراير 2011، ومَرَّ الموقف التركي تجاه ليبيا بمراحل:

المرحلة الأولى: الموقف التركي في بداية الثورة الليبية

في الخامس من نيسان/ أبريل 2011، توجه نائب وزير الخارجية الليبي عبد العاطي العبيدي إلى تركيا بحثاً عن وساطة تركيا والتي لم تنقطع معها شعرة معاوية علها تنقذ القذافي من أزمته، فالتقى هناك بالمسؤولين الأتراك، ولكن كشفت مصادر حضرت الاجتماعات بأن أولوية أنقرة في ليبيا تلك المرحلة هي وقف الأعمال العدائية⁸⁵.

كانت الجهود التركية حازمة وواضحة في ليبيا بما يتفق مع النظرة الدبلوماسية لوزير الخارجية التركي آنذاك أحمد داوود أوغلو، وكانت المبادرة التركية تتضمن وقف إطلاق النار ووقف الهجوم على المدنيين وانسحاب قوات القذافي من المدن التي أعيد احتلالها وتحديداً أجدابيا والبريقة ورأس لانوف ومصراته والزاوية وزوارة والزنجان والجبل الغربي، وإطلاق سراح المعتقلين والمخطوفين من قبل النظام وإدخال المساعدات الإنسانية وتأمين حرية الرأي والتظاهر والبدء بعملية للانتقال السياسي تتضمن رحيل القذافي. وفي مرحلة ثانية تضمنت مبادرتها الاستفتاء على الدستور وإجراء انتخابات حرة ونزيهة. ومثلما حصل مع كل المبادرات التي اقترحت رحيل القذافي، فقد رفضها النظام ولم يتعاط معها المجلس الانتقالي، مما يعني مزيداً من استمرار الصراع ونزيف الدماء⁸⁶.

كان الموقف التركي في ليبيا متخوفاً من تدخل عسكري للناطو على أنه حجة للدول التقليدية وخاصة فرنسا لاستعادة نفوذها في شمال أفريقيا، وقبل ذلك كان قد صرح مهندس الدبلوماسية التركية أحمد داوود أوغلو في لهجة ساد فيها نزوع إلى التحدي في 24 تشرين الثاني/ نوفمبر عام 2010: "لقد أعطيت أوامري إلى الخارجية التركية بأن يجد الرئيس الفرنسي ساركوزي، كلما رفع رأسه في أفريقيا، سفارة تركية عليها العلم التركي"⁸⁷، ولذلك اعتمدت السياسة التركية الواقعية في التعامل مع الثورة الليبية.

ومهما يكن، فقد كان الموقف الرسمي والشعبي التركي تجاه الثورة الليبية متنسقاً مع خيارها في دعم مطالب الثورة والتغيير السياسي التي نادى بها

⁸⁵ عبد الرزاق العرادي، الثورة الليبية... مفاصل وتداعيات، ص. ص 148 - 150.

⁸⁶ العرادي، الثورة الليبية... مفاصل وتداعيات، المرجع السابق، ص 149 - 150.

⁸⁷ وحدة الدراسات السياسية، "الموقف التركي من الثورة الليبية"، تقدير موقف، المركز العربي للأبحاث، الدوحة، 18 مارس/ آذار 2011، 1 - 6.

الليبيون، إلا أن الأزمة السياسية الداخلية التي بدأت في ليبيا منذ عام 2014، وتطورت بعد ذلك إلى صراع عسكري مع محاولة اللواء خليفة حفتر الانقلابية على الحكومة الوطنية الشرعية⁸⁸، جعلت الموقف التركي يتصاعد لصالح الشعب الليبي بشكل أكثر وضوحاً وحزماً.

المرحلة الثانية: الموقف التركي وانسجامه مع جهود الشرعية الأممية في ليبيا

أخذت تركيا على عاتقها مساندة خيارات الشعب الليبي في الانتقال السياسي والحوار الوطني، ولذا دعمت اتفاق الصخيرات في المغرب في كانون أول/ديسمبر 2015، الذي اعتبر بداية عملية انتقال سياسي برعاية أممية ومن جميع الدول المعنية بالقضية الليبية، ولكن بعدما أصبحت ليبيا ملعباً لميليشيات مختلفة، اصطفت تركيا بجانب حكومة الوفاق الوطني والمعترف بها من الأمم المتحدة في طرابلس، وأكدت مراراً وتكراراً أن العملية الديمقراطية هي الحل الوحيد للأزمة في ليبيا، كما أكدت على سلامة أراضي ليبيا وسيادتها وحق شعبها المشروع في التغيير والعدالة والديموقراطية⁸⁹.

في مقابل الموقف التركي المتناغم مع المقاربة الأممية والذي تحرك تحت سقف الشرعية الدولية، تبنت العديد من الأطراف الإقليمية والدولية مواقف لا تتناقض فحسب مع المساعي الدولية لحل الأزمة الليبية سياسياً، بل حتى مع المواقف الرسمية والمعلنة لهذه الدولة، فبينما كانت فرنسا المدفوعة بأهداف توسعية في القارة الإفريقية قد مدت يديها لحفتر، والذي تم استقباله من قبل الرئيس الفرنسي في قصر الإليزيه على الرغم من كونه لا يحمل صفة رسمية، ويعمل بشكل علني للإطاحة بالحكومة المعترف بها دولياً⁹⁰، كانت الخارجية الفرنسية تصرح على الملأ بأنها تدعم التوافق السياسي واتفاق الصخيرات، وكذلك مصر والإمارات، وهو خلاف ما تقوم به هذه الدول من انتهاك للسيادة الليبية واحتلال جزء من أراضيها ودعمها لقوات خارجة عن الشرعية الوطنية. هكذا اصطدمت المساعي التركية ذات النظرة الإيجابية للعب دور بناء في ليبيا والإصلاح بين أطراف النزاع بموقف عدائي من قبل معسكر حفتر والداعمين له. حيث اعتبر خليفة حفتر بمحاولته الانقلابية للسيطرة على ليبيا الجنرال الممثل للمعسكر الإقليمي المضاد للثورات في ليبيا، والذي يتبنى سياسات معارضة لتركيا، وبهذا وجدت تركيا نفسها في ليبيا في حالة مواجهة لم تبحث عنها ولم تسعى لها أبداً⁹¹.

⁸⁸ بلال سلايمة، "الموقف التركي من الأزمة الليبية"، 12 يوليو 2019، رابط: <http://bit.ly/2sP9u9i>

⁸⁹ فريق تحرير نون بوست، تركيا في ليبيا بعد عام 2011... من الدبلوماسية إلى التصعيد العسكري،

27/7/2019، رابط: <http://bit.ly/2ZhQEDV>

⁹⁰ سلايمة، المرجع السابق.

⁹¹ سلايمة، المرجع السابق.

المرحلة الثالثة: الموقف التركي الداعم لحكومة الوفاق الوطني في ليبيا

بعد رفضه الحل السياسي، جاءت خسارة اللواء خليفة حفتر الميدانية وخيبة آماله في السيطرة على طرابلس لتدفعه إلى تصدير أزمته الداخلية مدعياً بأن التدخل التركي على الأرض قام بقلب الموازين. ولم تتوقف الاتهامات المتجددة لتركيا بالتدخل في الأزمة الليبية على الرغم من كون الموقف التركي تجاه الأزمة الليبية، والمستند لعلاقات تاريخية تربط الطرفين، يتحرك تحت سقف الشرعية الدولية، ويتوافق مع المساعي الأممية لإيجاد حلٍ سياسي للأزمة.⁹²

وقد أكد رئيس لجنة الخارجية والتعاون الدولي بمجلس النواب الليبي يوسف العقوري سابقاً، خلال زيارة قام بها وفد من أعضاء مجلس النواب الليبي لتركيا في أيلول/ سبتمبر 2017م، أهمية الموقف التركي في حل الأزمة الليبية، حين قال: "إن الدولة التركية ليست داعمة للإرهاب، بل تقف على مسافة واحدة من كل الأطراف في ليبيا"⁹³.

فبينما كشفت تقارير أممية، بأن قوات خليفة حفتر تلقت كميات كبيرة من العتاد والمركبات العسكرية والإمدادات اللوجستية من دولة الإمارات التي ساعدت أيضاً في بناء قاعدة جوية في منطقة تسيطر عليها الميليشيات، في المقابل، ساعد الدعم التركي من خلال تنسيق رسمي بين الحكومتين التركية والليبية في تعزيز صمود القوات التابعة لحكومة الوفاق بعد هجوم قوات حفتر وحلفائه على طرابلس في نيسان/ أبريل 2019.⁹⁴

وعليه فقد قام رئيس الحكومة الليبية فايز السراج إثر الهجوم، بزيارة تركيا ولقاء الرئيس التركي رجب طيب أردوغان، وأكدت القيادة التركية بأنها لا تعترف إلا بالمجلس الرئاسي وبالحكومة الوفاق سلطة شرعية في ليبيا، كما قامت حكومة الوفاق الليبي في طرابلس بتفعيل اتفاقيات تعاون عسكري بين الطرفين وقُعت سابقاً بين الطرفين عام 2012، لكن حكومة السراج كانت قد فضلت عدم تفعيلها في سياق محاولتها التواصل مع كافة الأطراف. غير أن هجوم حفتر على طرابلس عزز الثقة بين أنقرة وطرابلس، كما أنه مهّد الطريق لتفعيل الاتفاقيات الموقعة سابقاً بين ليبيا وتركيا فاتحاً المجال لحصول طرابلس على دعم لوجيستي من قبل أنقرة فضلاً عن دعمها السياسي المعلن.⁹⁵

⁹² سلايمة، المرجع نفسه.

⁹³ عبد الرزاق العرادي، ليبيا... صراع الحرية والاستبداد، دار ابن كثير، بيروت، 2019، ص 283.

⁹⁴ فريق تحرير نون بوست، "تركيا في ليبيا بعد 2011... من الدبلوماسية إلى التصعيد العسكري"، موقع نون بوست، 27/ 7/ 2019. انظر: <http://bit.ly/2ZhQEDV>

⁹⁵ وحدة الدراسات السياسية، مذكرة التفاهم الليبية التركية: أبعادها وتداعياتها المحلية والإقليمية، تقدير موقف، 17 كانون الأول/ ديسمبر 2019، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ص 1 - 3.

وفي نهاية الأمر، وقعت الحكومتان التركية والليبية مذكرة التفاهم بشأن السيادة على المناطق البحرية في المتوسط في 27 تشرين الثاني/ نوفمبر 2019 خلال لقاء رئيس المجلس الرئاسي لحكومة الوفاق الوطني فايز السراج بالرئيس التركي الطيب أردوغان، ، وكان ذلك تطوراً نوعياً في العلاقة بين البلدين، فهذا إن دل على شيء يدل على مستوى العلاقات الدبلوماسية المتطورة والدور التركي في تمكين سلطة الدولة الشرعية ضد القوات الخارجة عن السلطة، لذلك توالى التصريحات الراضية لها من معسكر اللواء خليفة حفتر، ومن عدة دول مطلية على المتوسط على رأسها مصر وقبرص واليونان وإسرائيل والإمارات، فهي تبني لمستقبل اقتصادي وتنموي تركي وليبي في حال تحققت المصالحة والسلام في ربوع الأرض الليبية وسيكون لليبيا في هذه المنطقة ومع هذا الحليف الإستراتيجي (تركيا) مكانة عالمية بارزة ولأبنائها وأبناء الشعب التركي دور ريادي في النهضة والحضارة الإنسانية.

خاتمة ونتائج

من خلال دراسة مسارات العلاقة بين الشعبين التركي والليبي، وقراءة تطورها التاريخي، واستقراء الأحداث والمواقف التي شكلت روابط جامعة في العلاقة بينهما يمكننا أن نصل للنتائج التالية:

1. التدخل التركي العثماني في ليبيا في منتصف القرن السادس عشر، كان تدخلاً بهدف الإنقاذ والتحرير وجهاد الغزاة الصليبيين، وليس بهدف الاستعمار أو طمع بضم ليبيا، فهو جاء تلبية لمطالب أهالي وسكان ليبيا والذين مثلهم وفد تاجوراء، كما أثبتنا ذلك تاريخياً، فالتدخل العثماني جاء على شكل نجدة بغطاء شرعي ممثل بدعوة الشعب الليبي له.

2. الدخول التركي العثماني جاء في لحظة حرجة وخطيرة، تمثلت بالخطر الصليبي المحدق بالسواحل الإفريقية والليبية، مع انعدام للاستقرار الداخلي في البلاد، وعدم وجود كيان سياسي موحد ومركزي يواجه الغزاة الصليبيين.

3. لعب الأتراك العثمانيون دوراً عظيماً في الدفاع عن بلاد المغرب العربي، ومنها ليبيا، وحافظوا على السيادة الإسلامية فيها، وقاموا بتأخير احتلال القوى الأوروبية لليبيا أكثر من ثلاثة قرون.

4. شكلت ليبيا في عهد العثمانيين ولأول مرة في تاريخها، كياناً سياسياً مستقلاً عن مصر شرقاً، وعن تونس والجزائر غرباً، وأصبح لها قوتها العسكرية والاقتصادية الخاصة بها، وقد ظهر هذا جلياً خلال العهد القرمانلي.

5. ساهم الأتراك العثمانيون وخصوصاً في العهد العثماني الثاني، بوضع الأسس للدولة الحديثة في ليبيا، من خلال إدخالهم لمجموعة من القوانين العثمانية الحديثة والمعروفة بالتنظيمات، إلى النظم الإدارية والقانونية في ولاية طرابلس، كما لعبوا دوراً هاماً في بناء قطاع تعليمي على الطراز الحديث، كما شهد عصرهم نهضة في مجالات العمران والتجارة وغيرها.

6. شهدت العلاقة بين تركيا وليبيا فتوراً بعد انهيار الدولة العثمانية، إلا أنه سرعان ما عادت إلى مجراها الطبيعي، بل استمرت في تطور إيجابي متصاعد بعد مرحلة الاستقلال الوطني في النصف الثاني من القرن العشرين.

7. مع بداية ثورة فبراير في ليبيا، اتخذت تركيا موقفاً إيجابياً، لكنها وبعد تمرد قوات الكرامة بقيادة الجنرال خليفة حفتر ومحاولته السيطرة على طرابلس، اتخذت موقفاً سياسياً واضحاً بتأييد ودعم حكومة الوفاق الوطني المعترف بها من الأمم المتحدة، وأنها لا تعترف إلا بالمجلس الرئاسي في طرابلس، وذلك انسجاماً مع القرارات الأممية الخاصة بليبيا لتوفير الأمن والاستقرار والسلام والمصالحة بين الليبيين.

المصادر والمراجع

1. أبو عبد الله محمد بن غلبون الطرابلسي، التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من أخبار، تعليق: الطاهر أحمد الزاوي، القاهرة، 1349هـ.
2. إتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م، ط1، 1974.
3. أورخان قول أوغلو، مذكرات الضباط الأتراك حول معركة ليبيا، ترجمة: وجدي كدك، مركز بحوث ودراسات الجهاد الليبي، طرابلس، 1979.
4. بلال سلایمة، "الموقف التركي من الأزمة الليبية"، 12 يوليو 2019، رابط: <http://bit.ly/2sP9u9i>
5. جريدة الشرق، بيروت، العدد 6605، 5 أيلول/ سبتمبر 1969.
6. خليفة محمد التليسي، حكاية مدينة طرابلس لدى الرحالة العرب والأجانب، الدار العربية للكتاب، ط3، 1997.
7. راسم رشدي، طرابلس الغرب في الماضي والحاضر، طرابلس، ليبيا، 1953.
8. رياض شمس، نمو مستمر للعلاقات التجارية التركية العربية، مجلة عالم التجارة، المجلد 17، العدد 1، لندن، 1982.
9. سيد جلال الدين المدني، تاريخ إيران السياسي المعاصر، ترجمة سالم مشكور، مطبعة العالم الإسلامي، طهران، 1993.
10. الطاهر أحمد الزاوي، ولاة طرابلس من بداية الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي، بيروت، ط1، 1970.
11. عائد عميرة، "كيف حكم العثمانيون ليبيا لأكثر من 3 قرون؟"، 16/3/2018، موقع نون بوست، انظر: <http://bit.ly/372lJNl>
12. عبد الرزاق العرادي، ليبيا... صراع الحرية والاستبداد، دار ابن كثير، بيروت، 2019.
13. عبد الرزاق العرادي، الثورة الليبية... مفاصل وتداعيات، دار ابن كثير، بيروت، 2019.
14. عبد العزيز الدوري، التكوين التاريخي للأمة العربية "دراسة في الهوية والوعي"، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط5، 2009.
15. عبد العزيز بن باز، الفوائد الجليلة في المباحث الفرضية، السعودية، ط1، 1418هـ.
16. عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة: عبد السلام أدهم، ط1، 1969.
17. علي محمد الصلابي، الثمار الزكية في تاريخ الحركة السنوسية، دار الروضة، إستانبول، 2017.
18. علي محمّد الصلابي، الدولة العثمانية: عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط1، 2001.

19. فرانشكو كورو، ليبيا أثناء العهد العثماني الثاني، طرابلس، ترجمة: خليفة محمد التليسي، ط2، 1984، ص 12.
20. فريق تحرير نون بوست، "تركيا في ليبيا بعد 2011... من الدبلوماسية إلى التصعيد العسكري"، موقع نون بوست، 27 / 7 / 2019. انظر: <http://bit.ly/2ZhQEDV>
21. فريق تحرير نون بوست، تركيا في ليبيا بعد عام 2011... من الدبلوماسية إلى التصعيد العسكري، 27/7/2019، رابط: <http://bit.ly/2ZhQEDV>
22. لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي وقضايا المعاصرة، تحقيق شكيب أرسلان، دار الفكر، بيروت، 1971.
23. مجلة الشهيد، العدد الخامس، مركز دراسة جهاد الليبيين ضد الغزو الإيطالي، 1985.
24. محمد الطيب الأشهب، برقة العربية بين الأمس واليوم، مطبعة الهواري، القاهرة، 1945.
25. محمد علي داهش وعوني السبعواوي، "العلاقات الليبية التركية 1969 - 1990" مجلة دراسات تركية، العدد 4.
26. محمود السيد، تاريخ دول المغرب العربي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000.
27. محمود ناجي، تاريخ طرابلس الغرب، منشورات الجامعة الليبية، كلية الآداب، طرابلس، 1970.
28. مصطفى أحمد بن حليم، صفحات مطوية من تاريخ ليبيا السياسي، طرابلس، 1992.
29. مصطفى علي هويدي، الحركة الوطنية شرق ليبيا خلال الحرب العالمية الأولى، تحقيق صلاح الدين حسن السورية، طرابلس، 1988.
30. المولدي الأحمر، الجذور الاجتماعية للدولة الحديثة في ليبيا، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2009.
31. نيكولاي إيليتش بروشين، تاريخ ليبيا من منتصف القرن السادس عشر حتى مطلع القرن العشرين، بيروت، ط2، 2001.
32. وحدة الدراسات السياسية، "الموقف التركي من الثورة الليبية"، تقدير موقف، المركز العربي للأبحاث، الدوحة، 18 مارس/ آذار 2011.
33. وحدة الدراسات السياسية، مذكرة التفاهم الليبية التركية: أبعادها وتداعياتها المحلية والإقليمية، تقدير موقف، 17 كانون الأول/ ديسمبر 2019، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
34. يوسف شديد، بين السياسية والدبلوماسية: ذكريات ومذكرات، دار النهار، بيروت، 2001.

لقد دخلت البلاد الليبية بعد مرحلة الفتح الإسلامي في عام 643م في حكم دولة الخلافة الراشدة، ثم تبعت للدولة الأموية ثم التحقت بالدولة العباسية. وبشكل عام، فقد تعاقبت على حكم ليبيا عدة دول إسلامية بعضها تأسس في شمال إفريقيا واستقل عن حكم المشرق ومركز الخلافة، فأصبح المجال الليبي ميداناً للصراع بين الأسر المحلية ومختلف العناصر القبلية التي تسعى للنفوذ على الأرض، وتبعت في غربها للفاطميين ثم لدولة صنهاجة ثم لدولة الموحيدين ثم الحفصيين، بينما بقيت برقة تحت سيادة الدول التي حكمت مصر حتى مجيء العثمانيين.

د. علي محمد الصلابي

مؤرخ ليبي من مواليد مدينة بنغازي الليبية عام 1963. تحصل على درجة الماجستير في الدراسات الإسلامية من جامعة أم درمان الإسلامية، وحاز درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بمؤلفه فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام 1999 م. له عشرات المؤلفات في التاريخ والفكر الإسلامي، ومنها كتابه الوسطية في القرآن والسيرة النبوية والدولة الحديثة المسلمة والحريات في الإسلام والدولة العثمانية والجمهورية الطرابلسية وغيرها من المؤلفات.

